رواية

أنشودة الاصطياد

تأليف

أمير محمود شاكر

السعيد
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب/ أنشودة الاصطياد

الكاتب / أمير محمود شاكر

الطبعة الأولى 2019

تصميم الغلاف : محمد محسن

المراجعة اللغوية : سامح سرور

رقم الإيداع : 2019/14641

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6727 - 36 - 6

التصنيف : رواية

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير : لميـــاء السعيـــــد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 - 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

الإهـــداء

إلى الصديقة التي لم يُصمت القبر
صوتها في كياني

السفَّـــاحُ

✵ 1 ✵

ساكنٌ في قلب الغابة وكأنهُ حشرة متخفية بين الحشائش وأقدام الأشجَار، ترصدُ عيناهُ عَينِيّ الأَيَّل، قلقٌ يتلفت حولهُ. ترمشُ عينهُ في ناظور بندقيتهِ وأصبعهِ على الزِناد. صرخةٌ مفاجأة أيقظت الغابة وهرب على إثرها الأَيَّل فوقف بين الأشجار يطرق السمع إلى توسلات صوتٍ أنثوي، رمى رداءه الأخضر من على كتفيه وتوجه بحذر إلى الصوت المستغيث الطالب للرحمة. ما أن وصل حتى أطلقَ رصاصة في رأسها فأصمتها إلى الأبد، يدور حولها في مُقْلَتي الصياد، ينظر إليه من وراء شجرة محدثاً نفسهُ:

- هذا هو السفَّاحُ الذي يبحثون عنهُ.

قال هذا بعد أن طابق ملامحهُ مع شكله الافتراضي المرسوم في أوراق علقت على جدران المدينة. قبَضَ على بندقيته وقرر تحقيق العدالة في أرض الجريمة. تركَ المجرم الجثة والصياد يتبعهُ إلى أن شعر المجرم أن شيئاً ما وراءهُ، التفت بسرعة وهو يتأهب لإطلاق النار دون أن يعرف من وراءهُ لكن الصياد سبقهُ فأصابهُ في كتفهِ، سقط على الأرض والمسدس من يَد السفَّاحُ، يتلوى وهو يمسك كتفهُ المصاب وينظر في عَينِيّ الصياد ويصرخ في وجههِ:

- أجُننت، كادت الرصاصة أن تقتلني!.

– أشعر بألمها وبعد الألم ستأتيك الرصاصة الثانية لتذوق الموت مثلها.

– ماذا تريد؟ ومن أنت؟!.

– أنا قدرك الذي وضعني في طريقك لأقطعهُ عليك، وأريد أن أراك ميتاً.

توسل أن يتركهُ ويعفو عنهُ بكلمات تُنكِل بالمرأة:

– تلك المرأة ليست سوى عاهرة لا تستحق أن تنتقم مني لأجلها.

– والباقين الذين قتلتهُم هل هُم داعرون وعاهرات أيضاً وأنتَ الشريف الوحيد في المدينة!.

– لم أقتل غيرها.

– كذبتَ فعجلت بموتك.

أطلقَ عليه النار في رأسهِ وعينا المجرم مفتوحتان وكأنهُ يرى الجحيم. دار حولهُ وهو يتذكر ماذا كانوا يقولون عليهِ وكم شخص قتل. طرح بندقيتهُ أرضاً وأخرج سكينهُ من غمدها ودنا منهُ مبتسماً، يهمس بأذنهِ:

– سأطعنك ثلاثين طعنة بعدد الذين قتلتهُم ليس انتقاماً بل إشباعاً لرغبة العَدَالة الإلهية.

طعنهُ من رأسهِ إلى أخمص قدميه وفي كُل طعنة تتمكن منهُ سعادة لم يشعر بها من قبل وتتصلب لها إرادتهُ التي لن يهشمها

بعد اليـوم شـيء. حَـدَّ سِّـكِّينهُ فـي لحمـهِ وعظمـهِ. قلبـهُ علـى بطنه، رفع قميصهُ الوسخ لأُم رأسه، وأصبعهُ يكتُب بالدم على جلده:

«لَسنا وَجْهَيْنِ لعُمْلة واحدة»

نهـض وهو ينظـف سِّـكِّينهُ ويعلـق بندقيتهِ علـى كتفه، رفع رأسـهُ، فنظـر إلـى أنثـى الإِيَّـل وهـي تنظـر لـهُ بعينيـن مليئتيـن بالخـوف من تحت قرونها العظمية المُتشابكة، حتى قال لها:

- لا تخافي مني، فلا حاجةَ بي إليكِ اليوم.

✵ 2 ✵

يـدور حـول الجثـة ويقـرأ مـا هـو مكتـوب: لَسـنا وَجْهَيْـنِ لعُمْلة واحـدة. ينظر إلـى المسـافة التـي تفصل بيـن الجثتيـن فيراها ليسـت بالطويلـة. مـن قتـل المـرأة فهـو السـفَّاحُ المطلـوب ولكـن مـن قتل السـفَّاح؟!. هـذا هـو السـؤال المحيـر الـذي شـغل تفكيـر ضابـط التحقيـق. سـأل مسـاعدهُ عن معنـى العبـارة التـي كُتبـت بالـدم على ظهر السفَّاح، ليجيبهُ المحقق:

– إنها واضحـة وأتَمَنـى أن تكـون آخِر جُثـة نجدها مكتوبـا عليها بالدم.

– لماذا؟.

– لِأَنَ الذي يُكتب بالدم لا يُمكن محوهُ.

أصـدرَ الأمـر إلـى أَفـراد الشـرطة المحيطيـن بالسـفاح أن يقلبـوهُ على ظهـرهِ. قلبـوهُ ورأوا أَثـار طعنات كثيـرة اختلط فيهـا اللحم بالدم حتـى تـاه الحسـاب علـى الضابـط. بسـرعة أمرهُـم أن ينقلـوهُ إلـى الطـب العدلـي وأنـهُ يريد تقريـرا مفصـلا منهُم بأسـرع وقـت ممكن. مشـى إلى جُثـة المـرأة ووقـفَ يعاينهـا بتمعـن فلم يجـد فيها مـا يثير الِاهتِمَـامَ سـوى أن رصاصـة اخترقت رأسـها لا تشـبه الرصاصة التي اخترقـت رأس السـفَّاح وأَخـرى كتفهُ وذلك لمـا رآهُ مـن اختلاف في حجـم الخراطيـش المتناثـرة فـي مسـرح الجريمـة. وهـذا دليـل آخر

على أن مـن قتـل المرأة شـخص يختلـف عمن قتـل السـفَّاح. حاول أن يجـد سـلاحي الجريمـة لكنـهُ مـع فريـق البحث لـم يجدوا شـيئاً. لُفت جُثـة المرأة وتـم نقلهـا إلى الطـب العدلي أيضـاً. ظَلَّ يـدور في مسـرح الجريمـة الـذي يبعـث علـى الشـك والرِّيْبـةَ، سـنوات هُـم يبحثـون عـن هـذا المجـرم السـفاح وأخيـراً يجـدوهُ مقتـولا علـى مسـافة من جُثـة امـرأة اختطفهـا مُنـذُ أسـابيع. نظـر إلـى أرض الغابة بتمعـن عسـى وأن يجـد آثـار أقـدام لكنـهُ لـم يعثـر سـوى علـى آثار أقـدام تخُـص الضحيتيـن وأُخـرى مطبوعـة لكنهـا ممسـوحه وكأن الـذي دَاسَ علـى هـذه الأرض يلبـس حـذاء أسـفلهُ مصقـول لا يدل على أي علامة سـوى حجم القـدم. أكثر مـا شَـدَّ انتباهِ العبـارة التي تُريـد أن تقـول: أنـا لسـتُ مجرمـا بـل... صمـت وهـو يقـف بيـن الأشـجار الشـامخة ومن حولـهُ أصـوات الحيوانات والطيـور، واقف بجنب آثار أقدامهِ يسألهُ:

- وجهُك لأي عملة ينتمي؟.

✵ 3 ✵

دخل إلى كوخهِ الواقع خلف الغابة والجبال تلقي بظلالها على جبهتهِ. لا يحمل طريدة معهُ اليوم سوى مُسدس المجرم، يعلقهُ بأصبعهِ ويتأمل زنادهُ الذي أزهق أرواح ثلاثين شخصا والدم في إصبعهِ يلامس معدنهُ ليخاطبهُ:

- الإنسان كالمُسَدّس عندما يوضع بين يديَ الإنسان.

نزل إلى القبو ليخفي المُسدس هُناك. صَدَّ عينيهِ ظلامٌ دامس لم يُخفهُ بل كشف مصباح زيتي رؤوس الحيوانات عن الرعب في عيونها حينما رأينهُ، نظرتهن جامدة من اليوم والساعة واللحظة التي قطعت فيها رؤوسها وعُلقت هُنا. عَلق المُسدس على جدار يواجه جدار متحف رؤوس الحيوانات، كانت هذه أوَل ذكرى صيد من إنسي. خرج من القبو إلى باحة الكوخ الأمامية يتأمل قمم الجبال كيف تخترق السحاب. أعتمل شيء في داخلهِ ممزوج بالسعادة والتَعاسة، فاليوم سعادة والأمْس تَعاسة. خَطَى أوَل خطواتهِ في طريق قدرٍ جديد لم يكُن ينتظرهُ أَو يتوقعهُ لكنهُ كان يشعر بهِ. هي الوحدة وحدها من أنقذتهُ من نفسهِ، فمُنذُ أن فتح عينيه وعاش في المدينة حتى أصابهُ زُكام الرَذِيلة ورائحة العفن تملأ منخريهِ حتى تجرع مَرارة العيش التي تحولت إلى حلاوته يوم صادف العجوز، وجدهُ وهو مراهقٌ يبكي وحدهُ بين الأَزِقة البكماء، رَبَتَ على كتفهِ وقال لهُ:

- أبك قبل أن يُبكى عليك.

نظر إليهِ ولم يفهم ما قالهُ. ثُم ردَّ عليهِ العجوز قائلاً:

- أبك قبل أن تبكي على الآخر.

وقف في وجههِ صارخاً والدموع لا زالت في مقلتيه:

- ماذا تُريد مني أيها الشيخ الكبير؟.

- لا أريدُ منك شيئاً بل أَنتَ من تُريد مني.

- أنا أُريد!، وكيفَ ذلك؟.

- صوت بُكائكَ من ناداني، فلا بُد من أحدٍ أن يشرب دموعك ويحيا بها.

- أنتَ الرجُل العجوز الذي تتحدثُ عنهُ المدينة؟.

- أنا المدينةُ بشخوصها وبيوتها.

- ساعدني فأنا وحيد.

- لا تحتاج إلى المساعدة بل أن تعيش وحيداً بين أَحْضاني.

- لا وحدةُ في حضرتك وأحدنا سوف يسامر الآخر.

ابتسم لهُ وهو يشير إلى جسدهِ:

- أنا الوحدةُ نفسها تمشي على قدميها.

- إذن خُذني لأعيش معكَ.

– لا تعرض روحك للعُبودِيَّةُ في حضرتي ولا تستأنس بوحدتي بل تَلَذَّذَ بمرافقتي كما يتَلَذَّذَ المتسلق بصعود الجبال.

– سأمشي برفقتكَ وأغترفُ من معرفتكَ.

– سنمشي سوياً في الطريق الذي شققتهُ مُنذ زمن ونصطاد في الغابة التي زرعتها يدايَ.

مشوا في طريقٍ واحد فها هو العجوز الماضي وها هو الشاب الحاضر. يرمي بسهامهِ فيسقط طريدتهِ ويصارع الأُسُود بسيفهِ ويلوك الحقيقة بأسنانٍ قوية. ظلوا رفقاء دَرب هاجرين المدينة لا يزورها مرة أو مرتين في السنة ليروا حال البشر هُناك، هل في صيرورة ما؟، نعم هُناك هي الحيوانيَّة التي ينحدرون فيها إلى هوّةٍ سحيقة. لم يتعلموا تسلق الجبال لكنهُم تعلموا التزحلق في الوديان. اِشتَدَ عودهِ بعد سنوات حتى أصبحَ فكرهُ قوي العضلات كجسدهِ الذي خُلق ليكون صيادا بروحهِ وجسدهِ. مات العجوز قبل سنةٍ من الآن ودفنهُ بين جبلين تُحدق فيه القمتين، ولكنهُ قبل أن يموت قال لهُ:

– عش وحدتك وستعرف أيُ صياد ستكون.

واقفٌ ينظر إلى ما بين القمتين، مخاطباً الرياح لتحمل صوتهُ إليه:

– عرفت الآن أيُ صيادٍ سأكون.

✵ 4 ✵

اِستلَم ضابط التحقيق تقرير الطب العدلي، ممسكاً به بيد واليد الأُخرى تمسك سيجارة. يقرأ أن المرأة المقتولة تعرضت لرصاصة مسدس في جبهتها أدت إلى مقتلها في الحال، وأنها قُتلت قبل المجرم بخمسِ دقائق. أما المجرم فقد ماتَ فوراً أيضاً إثر رصاصة بندقية تستخدم للصيد اخترقت رأسهُ، مع رصاصة من نفس البندقيَّة التي اخترَقَت كتفهُ قبل أن يتلقى الثانية في رأسهِ، الطعنات التي تعرض لها بعد الموت عددها ثلاثون طعنه بسكين صيد حاد . والدم الذي كُتب فيهِ على ظهرهِ من نفس دمهِ بعد الطعن. رَمَى ورقة التقرير الطبي أمامهُ وأَسْنَدَ ظَهرَهُ على ظَهر الكرسي، ينفث دخان سيجارتهِ بوجه مساعدهِ ويقول بثقة:

– الذي قتل المجرم من أبناء هذه المدينة.

– وكيف عرفت ذلك؟!.

– طعنهُ ثلاثون طعنة بعدد ضحاياهُ وهذا معناهُ أنهُ يعرف المجرم وقد قرأ عنهُ في الصحف ورأى الرسومات التي علقت على مداخل المدينة ومخارجها.

– هذا صحيح. ولكن من أين نبدأ نُقطة البحث؟.

– من مكان الجثتين.

– ولكـن لا أحـد يسـكن بالقـرب مـن الغابـة إلا بضعـة أكـواخ ولكنها بعيدة.

– إننـا نبحث عـن صيـاد لذلك سـنفتش هـذه الأكـواخ بحثـاً عن أداة الجريمة والمنطقة المحيطة بها.

– سـيدي.. عُذراً علـى ما سـأقولهُ ولكـن الأكواخ بعيـده وممكن أن يكون هذا الصياد من المدينة ويريد أن يضللنا.

تنهَّد حائراً:

– ربما كلامك صحيح ولكن هذه لن تكون آخِر جريمة يرتكبها.

– وكيف عرفت ذلك؟!.

– من خلال العبارة التي تركها لنا.

– إنها مجرد عبارة.

– لا.. إنها ليسـت مجرد عبـارة، إنها مفتـاح هذه القضيـة وأراد أن يقول: إنَني لستُ مجرماً مثلهُ ولم أفعل سوى تحقيق العدالة.

– فهمـت الآن، هـذا القاتـل ذكـي ويجـب أن نبحـث عنهُ بسـرعة قبل أن يرتكب جريمتهُ الأُخرى.

– سيكون سباق بينهُ وبيننا.

– سـنُفتش الأكـواخ البعيدة ونخبـر مخبرينا بالِانتشـار بيـن الناس بحثاً بين الصيادين.

- هـذه فكـرة جيـدة، نفـذ بسـرعة ولا تخطـو أي خطـوة قبـل أن ترجع إليَ.

- أمرك سيدي.

خـرج مسـاعدهُ ولا زال سـارح الفكـر يحـدق فـي الصـور التـي التقطـت مـن مسـرح الجريمـة، بحثـاً عـن مفتـاح يحـل هـذه القضية لكنهُ لم يجد سوى العبارة المكتوبة بالدم، وتساءل:

- لماذا كتبها بالدم؟! أيُريد أن يؤكد شيئا ما؟.

الكَـــــاذِبُ

❋ 1 ❋

مـن مـكانٍ لا تحـدهُ الجـدران إلـى مـكان تقـف جـدران البيوت والمحـلات سـداً فـي وجهـهِ عمـا يقولـوهُ ومـا يفعلـوهُ. مشـاعرهُ تغيـرت من بعـد أن اصطـاد السـفاح، فهـو الآن يصطـاد أبناء جنسـهِ، وهـذا أسـهل مـن اِصطيـاد الحيوانـات. لغتهـم واحـدة ومن السـهل فهـم الآخر فـلا تحتـاج الطريـدة أن تكشـف عن نفسـها سـوى دقائق علـى العكـس فـي الغابـات والأَوْديـة، الصبـر هُنـاك هـو مفتـاح نجاحـك. يبحـث فـي يومـهِ الأَول فـي المدينـة عـن طريدتـهِ التـي سـتغذي روحـهُ العطشـة لتحقيق ذاتـهِ بـذات المجتمع المتفسـخ بعد أن فاحـت رائحتـهِ المتعفنـة على أيدي مـن يحمل لـواء الشـر وينفخ فيـهِ مـن فـمٍ لآخـر حتـى تكاثـروا وتعـودوا علـى العيـش فـي كَنَـف الأَرْوَاح المتسـخة، لتبـدو لهُـم الوسـاخة شـيءٌ أَقْـرَبَ ما يكـون إلى الفكاهـة والمـزاح كهـذا الـذي يجلـس بجانبهِ فـي المقهـى، يتلاعب بالكلمـات وكأنـهُ لاعب ورقٍ ماهـر ولكنهُ يغـش، يعلمون أنـهُ لعوب وشـهرتهِ تلفيق القصـص الزائفـة ليخرج مـن مأزقهِ أو يجمـل صورتهُ التـي شـوهها لسـانهِ وليـس كمـا يعتقـد فالنـاس تعرفـهُ كـذاب وتضحـك عليـهِ ولا تقـول لـهُ أنـت كـذاب إلا وهُـم يضحكـون. لم يجـرؤ أحـد إمسـاك لسـانهُ بـلا مـزاح، ليقـول لـهُ: أنـت كـذاب. إنـهُ يكـذِب علـى نفسـهِ وعليهـم، يطحـن الكلمـات فـي فمـهِ ويـزوق الـكلام الآتـي مـن الفـراغ ليقذفـهُ فـي وجـوه النـاس. فـي بعـض

الأحْيـان يصدقـوهُ مـن كُثـرة حبكـهِ لقصصـهِ لكنهُـم يصحـون مـن تنويمـهِ المغناطيسـي ويصرخـون ويضحكـون بأنـهُ يكـذب عليهـم. ينظر إليه بعيني أسـدٍ جسـور قـد جـاع ويجب أن يـأكل شـيئا ما حتى ولو كانـت جيفةٌ نتنة. يشُـم فيـه تصـدع روحهُ ويـرى ذواتـهِ المريضة اللآتـي أعْيَاهن كـذِب لسـانهِ فهـو مسـجونٌ وراء قضبـان صُنعت من كلمـاتٍ أتيـه مـن الفـراغ لا جـذور ولا هويـة لهـا إلـى أن تـاه خلف هـذه القضبـان فـي صحـراءٍ لـم يرهـا يومـاً. بائـس يتصنـع السَـعَادَة ويرسم على شفتيه الإبتِسامة قبل أن يرد على صديقهُ:

– إذا كُنت كذاباً فلستُ وحدي.

ضحك وردَّ عليه صديقهُ:

– هذا أكيد ولكنك من علمنا الكذِب.

تبعـهُ من مـكان إلـى آخـر، يسـمع مـاذا يقولـون عنـهُ فـي المدينة ومـاذا تقول لـهُ النـاس، وكمـا توقع فهـو مكروهٌ مـن النـاس ولا أحد يريد أن يعاشـرهُ سـوى أصدِقائـه الذين تركهُـم الآن. صاحـب البقالة يقول لهُ كذبـت عليَ ولـم تدفع مـا عليك، وامـرأة لحقتهُ وهـي تقول لـهُ أنهـا أَحبتـهُ لكنـهُ كَـذِب عليهـا ورماهـا بعـد أن أَفْـرَغَ شـهوته، وجارتـهِ العجـوز التي قتـل كلبهـا وقال لهـا أن أحدهـم أخـذهُ، يراها الآن تضربـهُ على صـدرهِ ويديـه، يدفعها ويسـتمر في جولاتـهِ التي لا تنتهي فـي المدينة التـي تعرفـهُ بأنـهُ كذابهـا وكُلمـا أرادوا مقاطعتهُ أو مواجهتـهُ فلا يجـرؤ أحـد على ذلـك لأنهـم جُبناء رضعـوا مـن ثَدْيَيَّ

هـذه المدينـة التـي تقبـر الشـجعان وتكـرم الجُبَنَـاء. دخـل إلـى بيتـهِ وهو عبـارة عـن شـقة حقيـرة فـي حـي شـعبي. حَـدَّث نفسـهُ وعيناه تنظُر إلى شقتهِ المتهالكة:

«كذبـك أرضـةٌ تنخـر في نفـوس البشـر ونفسـك مسـجونة خلف قضبـان لسـانك. عُقِـدَت النيـةُ وقُضـي أمـرهُ فهـو مـرضٌ يجـب أن يسـتأصل من جذور الإنسـان وشـرٌ لا يقدر أحد علـى اِبْتِلاعه سـوى من تربى في أَحْضان قمم الجبال وركض بين أحراش الغابات».

اِبتَلَـعَ الأُفُـق الشـمس الدامية وتسـلل الليل مـن ورائهـا وأجراس الكنائس وأصوات الجوامع والمعابد أَيقَظَت شيئا في نفسهِ:

– الأديـان فـي وادٍ والإنسـان فـي وادٍ لكنـهُ مـع وجهـهِ الآخر في وادٍ واحد. زُرت الإنسان وسأزور الأديان.

✵ 2 ✵

ربطهُ على كرسي والصياد جالس على الكرسي المقابل ينظر لهُ بعينين من وراء ظلمة وتفصل بينهُما طاولة الطعام. لا يرى شيئا من ملامحهِ فقد أطفأ الأَضواء إلا ضوءاً واحداً معلقا فوق الكاذب. مُكَمَّم فمهُ بقطعة قماش، يَئِنُّ من ورائها يُريد أن يتكلم لكنهُ لا يستطيع. بِازدياد أنينهُ خاطبهُ:

- ستكون حياتك أنيناً في أنين وستستجدي النطق بالكلمات بعد هذه الليلة. تكلمت كثيراً بلسان الكاذب، سأنهي عذاب الآخرين منك وأنت تجلدهُم بكلماتكِ وسينتهي عذاب نفسك المريضة، إن أنتَ فقهت درس اليوم. تريد أن تتكلم؟.

أومأ برأسه. نهض من مكانهِ ووقف خلفهُ يحذرهُ:

- لا تصرخ وإلا قتلتُك فوراً.

وضع يدهُ على فمهِ المكمم وقال لهُ:

- سأسمع آخِر كذبةً لديك.

أزاح عن فمهِ قطعة القماش وتنفس (من فمه ومنخريه) وزفر بقوة:

- من أنتَ؟ وماذا تريد مني؟.

ستعرف فيما بعد، من أنا. وأريدك أن تصمت إلى الأبَد.

- لم أفعل شيئاً كي تقتلني!.

- لن أقتلك بل أريد أن أَجعلَك عبرةً للكَاذِبين.

- لن أكذب بعد اليوم، أعدك بذلك.

- هذه هي آخِر كذبةٌ لديك.

أخرج لسانهُ من فمهِ وقطعهُ بالسِكّين والدم لطخ يدَ الصياد وروح الكاذب تئِن بألمٍ شديد، عيناهُ تريد أن تنفجرا، حتى أغمى عليه. تحسس لسانهُ بينَ أصابعهِ ووضعهُ في كيس. ثُم اِقتَرَبَ مِنهُ وهَمسَ فِي أذُنِهِ بصوتٍ عذب:

«حَرَّرتُك من لِسانكَ»

✵ 3 ✵

قـرأ العبـارة المكتوبة بالـدم علـى الطاولـة أكثر مـن مـرة، يتأملها ويرددها في نفسهِ:

«أَخْرَسَت الكَاذِب فيهِ إلى الأبد»

– سيدي هذا جارهُ الذي اِتَّصلَ بنا ونقلهُ إلى المستشفى.

سألهُ ضابط التحقيق:

– كيف دخلت إلى الشقة؟.

– وجـدت بـاب الشـقة مفتوحـاً، ناديتـهُ فلـم يُجب حتـى دخلت ورأيت وجههُ مُلطخا بدمائهِ.

– هـل رأيـت أحداً خـرج مـن شـقتهُ قبـل أن تـرى وجهـهُ ملطخا بالدم؟.

– لم أرَ أحدا.

– هل لهُ أصدقاء يزورهُ في الليل؟.

– لا أعـرف، ولكنـهُ فـي العـادة لا يخـرج مـن شُـقته أو يحـدث ضوضاء.

قيـد أَقوَالـهُ كاملـةً وأسـتجوب جيرانـهُ الباقيـن عسـى وأن يكونوا قد رأوا أحداً ما دخل أو خرج من شقته.

ظَـلَّ المحقـق يـدور فـي الشـقة فلـم يجـد شـيئاً سـوى العبـارة المكتوبـة بالـدم ولِسـانَه المُعتـدى عليـه مفقـود، قارنهـا بالجريمـة الأولـى عندمـا أخـذ المسـدس والآن يأخـذ اللسـان. الفـرق الوحيد أنـهُ تركـهُ حيـاً ولـم يقتلـهُ، وعبـارة أخـرى مكتوبـة بالـدم. نـادى المحقق على مساعدهِ:

– أتصلت بالمستشفى وسألتهم ما هي حالتهُ الآن؟.

– أتصلـت وقالـوا لـي أنهُ سـينجو ولكـن مـن الصعب اسـتجوابهُ الآن.

– فهمت.

– ماذا الآن يا سيدي؟

– إنـهُ نفس الشـخص الـذي قتـل السـفَّاحُ. وعندمـا قلـت أنها لن تكون الجريمـة الوحيـدة، أثبتـت الآن. يجـب أن نتحرك بسـرعة فهو يختار أشخاصاً محددين ليقتص منهُم.

– هذا صحيح ويأخذ تذكار منهُم ويكتب بالدم عباراتهِ.

– أتعرف ما هو أصعب شيء في هذه القضية؟.

– ما هو يا سيدي؟

– إنهُ ذكـي ولا يمكـن التكهُن بخطوتـهِ القادمة، سـوى أنـهُ يختار السيئين.

اِبتسمَ مساعدهُ ليقول ساخراً:

– وما أكثر السيئين في مدينتنا.

اكْفَهَرَّ وجـه المحقق واقتـربَ من وجه مسـاعدهِ وعيناهُ تستشـيطان غضباً:

– ممكن أن تكون أنت التالي في قائمتهِ.

صمـت مسـاعدهُ وطـارت الاِبتسـامَة مـن علـى وجهـهِ والمحقق يمطرهُ بالكلمات:

– أو أكـون أنـا التالي، وجهـة نظـرهُ بالسـيئين تختلف عن مـا نراهُ نحنُ من سيئين.

– أهو مجنون؟.

– نحنُ من سيصيبنا الجنون من جراء أفعالهُ.

– أنتركهُ يطبق قانونهُ بدلاً من قانوننا؟.

– إنهُ لا يتحدانا بل يُنفذ حسب رغبةٍ ما. صمت بعدها وقال:

– لنذهـب إلـى المستشـفى ونحـاول اسـتجواب صاحب اللسـان المقطوع متى ما استفاق.

– وكيف نستجوبه وهو لا يستطيع الكلام!.

– سـيكتب لنـا كمـا أراد مـن قطـع لسـانهُ ولـو اِنتظَرنـا شـفاءهُ إلى حين.

✵ 4 ✵

دَقَّ لسانهُ بجانب مسدس السفَّاحُ، اِلتفتَ إلى رؤوس الحيوانات المعلقة على الجدار المقابل فأصبح بين عالمين، عالمٌ غادرهُ متلفعٌ بعباءة الماضي وعالمٌ تعرى أَمامهُ، يطارد فيه طرائدهُ التي تناديهِ من خلف أَسْوَارها العالية أن خلِصنا وغيرهُم أن اِبتَعِد عنا. في منتصف عالمين واقف، ظهرهُ للماضي وعينهُ على الحاضر الذي يخطو بسرعة نحو المستقبل بعد أن حمل عقلهُ أثقل الأحمال بعد موت العجوز فهو الوريث الشرعي لفكرهِ وشجاعتهِ ووحدتهِ. لم تبق لهُ سوى الذاكرة يستقي منها صوت العجوز وهو يقول لهُ:

– لا تهاب المَخَاطِرِ ففيها غاية الإنسان.

– ولماذا أُخاطِر وأنا على بَرّ الأمان؟.

– لا أمان، فهذا وهمٌ تمثل للإنسان.

ظَلَّ الصياد صامتاً وصوت العجوز يتردَّد:

– غامر بنفسك من أجل نفسك ولا تدعها تُغامر أولاً من أجل غيرك.

– أليست هذه أنانيّة؟.

– نعم. لأنَ من لم يُجازف بنفسهِ لا يستطيع أن يُجازف لأجلِ غيره.

– وما هي هذه المَخَاطِر؟.

ضحك العجوز وهو يصرخ في ذاتهِ:

– الضحـكُ مخَاطَـرة في وجـهِ الموت والبـكاء مخَاطَـرة في وجه الحياة.

– لا أَهـابَ المـوت ولا الحيـاة بـل أَهـابَ الـذي خَلَـقَ الحيـاة والموت.

– تحررت الآن من الخوف فلا مَخَاطِر تثنيك بعد اليوم.

– أَشعُر بالعطش مهما شربت!.

– اشْـرَبْ قـدر مـا تسـتطيع فبـذرة السَّـنْدِيان سـتكون شـجرة في نفس الإنسان.

أَغْمَضَ عينيهِ ولا زالَ يشعُر بالعَطَش ليقول في نفسهِ:

غداً أرتوي من شر البشر وبعد غد سأشبع ثُم أتقيأه في قبر.

✵ 5 ✵

في نفس اليوم لم يحصل على شيء من المقطوع لسانهِ وكان عليهم أن ينتظروا أسبوعاً كي يخف ألمهُ ويغادرهُ وقع الصدمة. لكن بعد اِنتِظار أسبوع كامل خرج المحقق مع مساعدهِ من المستشفى ولم يحصل من المقطوع لسانهُ على أي أوصاف تدلهُ على شكلهِ، سوى المُحاوَرة التي دَارَتْ بينهُ وبين الصياد. وبقت آخِر كلمات قالها الصياد للمقطوع لسانهُ في ذِهن المحقق، تُكررها شفتاه بصوتٍ هامس:

«حَرَّرتُك من لِسانكَ»

– وماذا تعني هذه بالضبط يا سيدي؟.

– إنهُ أَخْرَس الكَاذِب فيه إلى الأبد.

– ومن يعتبر نفسهُ نَبيّ أم حَاكِم حتى يقاضي الناس؟!.

– لا هذا ولا ذاكَ إنهُ يُنفذ قوانينهُ.

– بدأت أَشعُر أن الذي نطاردهُ شبح.

– هو كذلك يتنقل بسهولة ومن غير أن يَشُكّ فيه أحد، يختبئ بين الناس.

– وما الحل؟.

– لا حل، حتى نرى أي زَلّة لهُ أو خطأ ما، نستطيع من خلالهِ أن نمسكهُ.

– قصدك أن يرتكب جريمة أخرى؟!.

– نعم. ليس علينا سوى الإِنْتِظار.

– لكن الإِنْتِظار ليس في صالحنا، بدأت الصحافة تَشِم الأَخبار وإذا ما أرتكب جريمة أخرى ستصعب المسألة علينا.

– كَلاَمك صَحيح لكن لا حِيلَة لنا سوى أن نُكتم الخبر.

– سأرى ما أستطيع فعلهُ.

– أذهَب وقُمْ بعملك.

نَظَر المحقق في الظَلام المحيط بهِ وسألهُ:

– من ستقتل هذه المرة يا حامل لِّوَاء العدالة؟!.

القَـــــوَّادُ

✵ 1 ✵

مُستيقِظ في رِحاب المدينة النائمة، لم يستطع أن ينام من شَدَّة عطشهِ. عطشٌ لا يرتوي بصيدٍ أو أثنين. تاركاً نفسهُ تسيرها أقدامه بين الأزقة وحدسهُ لا يخطئ بأن الطريدة التالية قريبة. من بين ظلمات الأَزِقَّة وأمام بار قبَضَ بصرهُ على رجل يضرب فتاة يوحي مظهرها أنها بائعة هوى ويقول لها بصوت أفزعَ أشباح الليل:

– أتسرقين أيتهُا العاهرة، لولاي لقتلكِ الجوع.

تبكي وترد عليهِ بصلافة:

– أتركني أيها القوَّاد، أنا لم أَسرقك.

– سأقتلك أنتِ وصديقاتك العاهرات.

ظَلَّ يضربها ويشتمها وهي جاثية على ركبتيها. تلثمَ وتوجه بسرعة إليه، تفاجأ القوّاد من رؤيتهِ. ضربهُ بقبضة المسدس على أُمِ رأسهِ ففقد وعيهُ. ثُم قال لها:

– ساعديني على حملهِ.

كففت دموعها وحملتهُ معهُ إلى الداخل، أجلسهُ على كنبة حمراء ومن حولهُ خمس فتيات بملابس خليعة، جاهزات لمضاجعة الرجال. تشكرت منهُ الفتاة وهي تسألهُ:

– من أنتَ أيها المُلثَّم؟.

لـم يجبهـا ولكنـهُ أمرهـا أن تأتي بحبـل وتربـط يديه خلـف ظهره وقدميـه. أتـت بقيـود بوليسـية للقدميـن واليديـن تسـتخدمان لربـط العاهـرة كـي يضربهـا الرجـل فيزيد العنـف لـذة الجنـس فيـه، قيدتهُ ومن حولهُ تراقب الفتيات، سألهُن الصياد:

– هذا قوّادكن؟.

– نعم.

– هل أنتن مجبرات على العمل أم هو أجبركُنَ؟.

صمتنَ ولكن الفتاة أجابته:

– الفقـر مـن أجبرنـا علـى هكـذا عمـل والقـدر مـن وضعـهُ فـي طريقنا.

– لماذا كان يضربك؟.

– لأنني في هذه الليلة لم أَجلب لهُ نقوداً كثيرة.

– هـل يضـرب الأُخْرَيَـات ويجبركـن علـى أشـخاص لـم تـردنَ النوم معهن؟.

– إنـهُ يضربنـا ويشـتمنا كأننـا عبيـد والتـي تفكـر أن تتـرك العمل يقتلها.

– سينتهي كُل شيء الليلة.

– ولكن قُل لي من أنتَ ولماذا تفعل هذا؟!.

– أنا يَـدُ القـدر الـذي أراد اليـوم أن يُصحح مـا أخطأ فـي اِختياره لَكُنْ.

فتح القوّاد عينيـه وهو مرعوب مـن الرجـل المُلثَّم أمامـهُ المُحاطُ بنسائه. قفزت الكلمات منهُ برعبٍ شديد:

– أتصلن بالشرطة ولتأتي أحداكُن لفك قيودي.

– إذا أردتـن تحريـرهُ لكُـنَ ذلـك وإذا أردتُـن عقابـهُ سنشـترك بـهِ كذلك.

نطقت إِحدَاهُنَّ بغضب:

– سنعاقبهُ كما عاقبنا.

كمَّمَ فاهُ ونـزع عنهُ بنطلونهُ ليكشـف عـن قضيبهُ حـاول الوقوف لكـن الصيـاد أجلسـهُ وثبتـهُ مـن كتفـهِ، أخـرج سـكينهُ وهـي تلمـع تحت ضوءُ المصباح الأصفر وخاطبهن:

– من منكُن تريد أن تُذيقهُ ما أذاقهُ لكُنَ؟.

صمتـن وتبادلنـا نظـرات خَـوْف، ولكن فجـأة نطقـت الفتـاة التي كان يضربها قبل قليل:

– أعطني السكين.

أعطاهـا السـكين لكنها مرتجفـة فـي قبضتهـا والدُمُـوعُ تنهمر من عينيهـا وتتقدم ببـطء نحو القـوَّاد. وقفـت صامتـة حتى قبَـضَ الصياد على يدها وهو يحنو عليها بكلماتهِ:

– نمتِ في كهف العُبُوديَّة طويلاً فدعي الأمر للذي لم ينم فيهِ.

قص قضيبهُ وخصيتيهِ ليصرخ من وراء كمَّامهِ والدم يفيض على فخذيه وجلد الكنبة الحمراء. التفتَ اليهُنَ وهُنَ مرعوبات وسعيدات بعذابهِ وفي كفهِ عضوهُ والدم حار وطازج ينساب بين أصابع كفهِ، ثُم اِستَدارَ إلى القوَّاد وأماط عنهُ كمَّامهُ بعد أن فَقَدَ وعيهُ وروحهُ القذرة تغادرهُ إلى العالم الآخر. فتح فمهُ وحشرهُ فيهِ. عرى صدرهِ وهو يكتب عليهِ:

«ذُق ما أذقتهُ لهُنَ»

ينظف يديه وسكينهُ من الدم بخرقةٍ أَخرجَها من جيبهِ، ثُم حررهُن بكلماتهِ:

– أَخرجنَ الآن فأنتنَ أحراراً.

خرجنَ صديقات الفتاة بين مذعورات وفرحات إلى الشارع وأمسكت بتلابيبه الفتاة التي كانت تُضرب بيد القَوَّادُ عندما أراد الخروج وهي تترجاهُ:

– دعني أرى وجهك.

– لا تتعلقي بوجوه الأحرار بل تعلقي بحرية الأحرار.

– من أنتَ وما اسْمُكَ؟!.

– أنا بَيضة القبَّان في ميزان الأَقْدَار.

- ألا تحمل أسم؟.

- دفنتهُ في قبر الإنسان.

- لم أفهم!.

ستفهمين حينما تعيشين في قلبه.

- شكرا لك.

- لا تشكرين الإنسان بل اشْكُرْي من أَوحَى لهُ.

خرج مسرعاً وعيناها تلاحقانهِ وهو يختفي في أَحْضان الليل. خرجت تتبعهُ ببُطء، تقلب كلامهُ في قلبها وعقلها. فقد أشعلَ النَّارَ في ذاتها بعدما انطفأت لسنين طِوَال. وقفت بين تقاطع الطريق وهي تخاف أن تنظر خلفها:

- كُل شيء سيكون وراء ظهري وسأبدأ من حيث قُتل القوَّاد.

✵ 2 ✵

اخترق المحقق ومساعدهُ جمهرة الناس المذعورين والمتطفلين، والصحافة المتجمهرين أمام البار يريدون أن يعرفوا كُل شيء بأسئلتهم التي تلاحقهُ، دخل المحقق ووجد القوَّاد وقضيبهُ في فمهِ والدم على فخذيه والكنبة الحمراء. تجلس العواهرُ الخمسة على الكنبة المقابلة بعد أن ألْقَى القَبضَ عليهن وجلبنَ في الصباح الباكر إلى مسرح الجريمة. تم التحقيق معهُن بشكل مستفيض عن شكل المجرم الذي قتل القوَّاد لكنهُم لم يحصلوا سوى على أوصافهِ الخارجية. جلس المحقق يحدق بغضب في وجوه العاهرات يسألهُنَ:

- كيف دخل؟.

تكلمت الفتاة التي كان يضربها القوَّاد في الشارع:

- عندما كان يضربني القوَّاد في الشارع جاء شخص من ورائِه وضربهُ على رأسه، أفقدهُ وعيهُ وقال لي أن أحملهُ معهُ فامتثلت لهُ وأدخلناه. وبعد ذلك طلب حبل وأن أربط يديه وراء ظهرهِ وقدميه لكني جلبت لهُ القيود الجنسية البوليسية.

- أكان صوتهُ يشبه أحد الزبائن اللذين يترددون على المكان؟.

هَزَّتْ رأسها بالنفي ونظر للأُخريات فهززن رؤوسهن أيضاً.

- ما الذي تحدث فيه قبل أن يقطع عضوهُ؟.

نفس الفتاة تحدثت مجيبه:

– سألنا إن كان يجبرنا على النوم مع الرجال أو هل يضربنا أو يشتمنا.

– وبماذا أجبتن؟.

– قلنا لهُ نعم يفعل هذه الأَشياء.

لم يتحدثن عن إِعطائها السكين وأنها لم تستطع أن تقطع عضوهُ لأنَ ذلك يدينهن وبالأخص صديقتهن التي حملت السكين بيد مرتجفة. تململ المحقق وسأل:

– وبعد ذلك؟.

– قطع قضيبهُ وحشرهُ في فمهِ، ثُم كتب بأصبعهِ الملطخ بدم القتيل: ذُق ما أذقتهُ لهُنَ. وبعدها قال لنا: أخرجن الآن فأنتن أحراراً.

أمر المحقق أن يُطلق سراح الفتيات وطلب من الطبيب المعاين أن يأتي، الذي أَرْسَلَ في طلبه قبل أن يصل إلى موقع الجريمة، عسى أن يجد شيء يفيد القضية. نهضَ ودارَ حول الجثة وهو يقول لنفسهِ:

– إنهُ نفس القاتل. نادى على الطبيب وسألهُ:

– أخبَرني ألم تجد شيئا ملفتا للنظر؟

– لا شيء سوى أن خصيتيهِ لا وجود لهما.

أزداد حنقهُ وهو يعطي ظهرهُ إلى الطبيب قائلاً:

- أخذ خصيتيهِ ليعلقهما في متحفهِ.

أزداد الصخب في الخارج وأنزعج المحقق لذلكَ، وبدأ يصرخ أن فرقوا الناس وأبعدوا الصحافة من هُنا لكن مساعدهُ همس في أُذنهُ:

- الناس مقدور عليهم لكن الصحافة يجب أن تجيبهُم على بعض الأسئلة.

- هذا مستحيل، فنحنُ لا نريد أن نبث الرعب في قلوب المواطنين وإن عرفوا بجريمتيه السابقتين فسوف تطبل الصحافة وتجعلهُ بطلا بمبادئه التي يقتل من أجلها، فهو لا يقتل الأبرياء.. أفهمت؟.

- إذن احقنهُم بإبرة بمخدرة لحين الإمساك به.

نفث دخان سيجارتهِ والغضب لاحَ على تعابير وجههُ، وبدون أن يتكلم فتح باب البار وخرج وعيناهُ تضيقان من فلاش كاميرات الصحفيين. هتف بهم:

- أهدئوا ولا تُثيروا ضجة وعلى الناس أن يطمئنوا، فهي جريمة اِنتِقام لا أكثر ولا أقل.

سأل صحفي بجرأة:

- هل هذه أول جريمة تحدث بهذا الشكل؟.

- أي شكل؟.

- أن يَحْشُر قضيبٌ في فم!.

- مجرم مريض أرادَ أن يشوههُ.

وبعد ذلك جاءهُ السؤال المحرج:

- سيادة المحقق تقول مصادرنا إنها الجريمة الثالثة لهُ .

- عن أي جرائم تتحدث؟.

- بدأ بالسفاح وبعدهُ الذي قطع لسانه ومن ثُم هذا القوَّاد، ألا ترى أنهُ مخطط لشيء وتحمل جرائمهُ شيئا ما يريد أن يقولهُ؟.

صمت الحشد منتظرين الإجابة، غضب لتسرب المعلومات، نَطَقَ وهو يضبط نفسهٌ من الإنفِجار بوجهِ هذا الصحفي:

- لا تجعلوا من المجرمين أبطالا وحاملين للواء العدالة، فهذا المجرم ليس سوى معتوه.

أزاح الميكروفون عن فمهِ وتوجه إلى السيارة بين الحشد والأسئلة تنزلُ على رأسهِ كالمطر، يرمقهم بنظرة غضب. دخل سيارتهُ بشق الأنفس ومن بعده مساعده الذي أَدارَ المحرك و اِنطَلَق في الشارع. يريد أن يهون على المحقق:

- سنقبض عليه يا سيدي.

- لن نقبض عليهِ إلا إذا أرادَ ذلكَ.

✵ 3 ✵

عَلَق خصيتي القوّاد على الحائط وخرج من القبو إلى خارج الكوخ والفجر يسقط ضوءه في عينيه وهواؤهُ يلفحُ قديه. ناداهُ صوتٌ عذب من بين ثنايا قلبهِ: قلبُك دقَ باب قلب الفتاة القديسة التي حررتها من براثن العهر. تبسم لصوت الحُب الذي طرق بابهِ وهو في شعلة الثورة المُتقدة، حاول أن يطرُد هكذا مشاعر لأنها تُخيفهُ من أن تُثنيهِ عن مهمته المُقدسة، لكنها لا تُغادرهُ، فتلك الفتاة الشقراء بعينيها اللتين تفيضان حُباً لابُد أن يشرب من مياهها الزرقاء كي لا يتعاظم الكُره في قلبهِ الذي لم يرَ في حياتهِ سوى كفَ الكراهية تصفعهُ أينما حل وأرتحل حتى جاءت كفَ المُعلم العجوز وهي تُداوي ضربَ كفوف الكره على روحه التي شربت منها في هذه الحياة الصارخة بالشر. لم يكُن العجوز فيلسوفاً أو قديساً أو كافراً يُصارع بقوة يديه الله كي يُطيح بهِ، بل كان رجلا خرج من القطيع المتدافع إلى هاوية العُبُوديَّة العمياء التي تسحق ورود الحُرِّية في طريقها، ليتخذ من الغابة جواراً لهُ لا تُخيفهُ وحوشها المتربصة بالبشر ومن الجبال سلماً لبلوغ الأعالي في قلب ذاك الإنسان المتمرد في جوف البَشَريَّة المتعفن من أكل لحم الأخ لأخيه. انتشل نفسهُ بفضل أمهات الكُتب المتنوعة والتي تصرخ بالحقيقة من عدة وجوهٍ حتى تلونت قريحتهُ كحقلٍ تفتحت فيهِ براعم الزهور الصفراء والحمراء

والبنفسجية ليخرج من عباءة الايدلوجية إلى فضاء الحُرِّية، لم يُقاطع أهل المدينة بل يعرفوهُ بالرجل البوهيمي الذي توحد مع الطبيعة فهي أمه وأبيهِ وأخته وأخيه، لا يقبل عطايا المال من أحد ولا يعمل عند أحد فهو يزرع ويأكل ويصطاد في الغابة ما طاب لهُ من لحم الغزلان والذئاب، مجهول الهُوِيَّةُ بالنسبة لعامة الناس لا يعرفون اسمهُ ولا حسبهُ ولا نسبهُ بل يعرفون معرفته في الحياة التي تدنت بدخول التكنولوجيا لها من خلال حديثه معهُم، فهم يحبون أن يسمعوه لكن لا يحبون أن يأخذوا بما سمعوهُ ويطبقوه على أرض الواقع. بعد أن عرفهُ ذاك المراهق ورافقهُ بشغف وحماس بين الأقوام متعددة القوميات والأديان والمذاهب كي يرى ويتعلم أنك لست أبن الرب الوحيد الذي تمتلك الحق المُطلق لطرق بابه، فهناك عشرات الأبواب والطرق التي يسلكها غيرك كي تدخلهُم إلى رحاب الله. في حياة العجوز صب اهتمامهِ على الفتى فجعلهُ يقرأ ويهضم معظم كتبهِ في مكتبتهِ التي تضم الأديان والحضارات والتاريخ الذي يحتضنهما حتى قال لهُ في يومٍ من الأيام والفتى المُراهق ينظر بحَسْرة إلى طلاب مروا أمامهُ: هؤلاء تلاميذ في مدرسة وأنت تلميذ في مدرسة الحياة. اقتنع بكلام العجوز بمرور الزمن، أنهُ ممسك بطرف المعرفة وبطرف القوة من اصطياد الذئاب والنمور والطيور الجارحة ببندقية معلمه التي شهدت على تدربهِ حتى صار محترفاً في الصيد الذي يصمت معدتهِ ويقوي عزيمتهُ لمواجهة الأخطار.

خاطـب الصياد شـهوتهُ المُتقدة بحـبِ تلك الفتـاة: أول مرة أشـبعتُك فيهـا منذُ سـنوات فـي بيت بغـاء وبحضـن عاهـرةٍ، فبعد مـوت الأب العجـوز لـم تزرني نـار الشـهوة بل نـار الحُـزن التهمـكِ. تذكـر ذلك اليـوم الـذي فاجـأهُ فيـهِ رفيقـهُ حين أدخلـهُ إلـى بيـتٍ مملوء بالنسـاء والفتيـات حتى اسـتقبلتهُ امـرأةً بفـرحٍ غامـر وهـي تحتضنـهُ وعيونها اغرورقـت بالدمـوع فقبلتـهُ علـى وجنتيـهِ، لـم ينتظرهـا تسـأل عـن صديقهُ فقـال لها: حيـي أبنـي. صافحتهُ وهي غيـر مقتنعة حتى مسـح ضبابـة بصيرتهـا: خـرج مـن رحـم أُمٍ ميتـه. تركـهُ حيـن جلـس فـي غرفـة صاحبة البيـت يتحدث معهـا والفتى في باحـة البيت مـع البغايا وهُـنَ يُداعبنـهُ ويتراقصـنَ فرحـاً حولـهُ فهـو اليـوم السـلطان وهُـنَ المضحيـات اللواتي سـيعرفنهُ ما هـو الجنس، حتـى سـرقتهُ احداهُن بعد أن اسـتهوتهُ مـن دونهُن ليكـون طريح الفـراش وهي تسـقُط على حيوانهِ المُتصلـب الذي نقل لهُ شـعور الاتصـال بفرجِ فتـاة وكيف أن التلامُـس عـلاجٌ لـداء النفـس التـي تُريـد أن تُكمـل الطريـق. حينمـا خرجـوا مـن بيـت بائعـات الهـوى بقـى الأب الحنـون يسـترق النظر إليـه، فـرأهُ خجـلٌ ومُكتئـب لكن فـوق كُل هـذا يدور سـؤال فـي بال صديقـهِ الفتـي لكـن كعادتـهِ العجـوز الفطـن أجابـهُ: لا عيـب فيمـا فعلـت لأنـي أردتُك أن تُذوق جسـد المـرأة وتُفـرغ نار شـهوتك التي تلقـي بظلالهـا المريضـة علـى نـور النفـس التواقـة لشـرب المعرفـة والقوة.. صمت قليـلاً ثُم أكمـلَ: لا تناقض فيمـا علمتُك إيـاه والذي دفعتُـك لفعلـهِ اليـوم، فما بيـت البغـاء إلا ملجـأً لـكُل مُقعـد لا تقبل

امـرأة فـي مُضاجعتـهِ وأعمـى يُريـد أن يفـرغ مـا يسـتعر فيـهِ مـن نار تلسـع وعابر لسـبيلٍ كمثلك يشُـق طريقـهِ بلا امـرأة، فهُـن مضحيات لأجل الآخـر وأنـتَ كذلـك سـتُضحي لكـي يعيـش الآخر لكـن يوم تجد فيـهِ أن هـذه البيوت قـد تحولت إلـى كُل من هبَ ودبَ وتسـمع صـوت القديسـات المظلومـات مـن قـواده أو قـواد فـلا تشـاركهُم فعلهُم بـل أقضـي على صـوت الظالـم وأخرسـهُ للأبـد، فنحنُ لسـنا ككهنـة المعابد فـي العصور المندثـرة يدفعـون الناس لجلـب فتياتهُم الجميلات يجلسـن في باحـة المعبـد ليتبركن فـي ممارسـة العُهر فيه ومـن وراءهُ تجبـى أموالهُـن في جيـوب الكهنـة الأنجاس، فـلا نُصرة لبغايـا المعبـد، والنصـرة لبغايـا الحيـاة المقهـورات مـن أقـدار فقـر الحيـاة اليـوم مـن تُريـد أن تسـد رمقهـا بقطعـة خبـز، وكمـا تـرى لا أسـتطيع أن أوفـر لقمـة العيـش لهُـنَ وإلا لقضيـت علـى هـذه المهنة ولـو أن لهـا فوائـد ومضـار كسـم الأفعـى يقتـل ويـداوي. طـالَ فيـه الوقـوف تحت شـمس الصباح ليشـعر بحرارتهـا على جلـدهِ لكن نار قلبهِ تلسـع أقـوى منهـا، ليـدع القـدر يجمعهُـم بأن يخطـو لهـا أو أن تخطو لهُ كي تُطفأ تلك النار الشرِه التي يولد منها الإنسان.

✵ 4 ✵

لـم تسـتطع الإنتظـار طويـلاً كـي تذهـب إليـهِ فـي تلـك الطـرق الموحشـة لتفاجـأه وهـي واقفـة على بـاب الكـوخ المفتـوح ولا زال هو مُسـتلقيا، حينمـا لمحَ ظلهـا، أختبـأ وراء البـاب، دخلـت ومن ثُم بسـرعةٍ سـحبها بيـده إلـى صـدرهِ والأخـرى تصـوب المُسـدس إلى صدغها، لتقول خائفة:

– لا تقتلني أنا العاهرة التي حررتها بالأمس.

أفلتهـا والفرحـة المخنوقـة فـي قلبـهِ تُجاهـد للترحيـب بهـا لكنهُ سألها بعيداً عن مشاعره التي حققها له صاحب الأماني:

– وكيف عرفتي أني أسكُن هُنا؟!.

– تبعتُـك حيـن خرجت مـن عندنا فـي طرقـات المدينـة المظلمة لحيـن خروجـك مـن المدينـة لتبلعـك الغابـة الرابضة تحـت خيوط ضـوء الفجـر الأولـى، خمنـت أن يكـون بيتُـك وراء الغابـة، وهـا أنا وجدتُـك ولـن أتـركك لأنـك مُحـرري وحُـبٍ مـن وراء لثامـك تمخـض بفعـل فعلتك بتحطيـم قيـودي لكـن لا ملجأ لي إلا السـكن معك وفي قلبكَ.

– أنـتِ مجنونـة كي تعيشـي مـع شـخصٍ تبحث عنـهُ كُل شـرطة المدينـة ولكـن كمـا كُنـتِ صريحـة فسـأكون صريحـا معـكِ، فأنـتِ أيضاً لم تُغادري تفكيري.

احتضنتهُ بقوة فهو ملجأها وسندها من شر الحياة المتربص بها، فهي المنتظرة من زمنٍ طويل لأحدٍ يملك الشرف في تخليصها من بيتٍ سلبها شرفها والآن وجدته في أحضانهِ، لا شيء أضناها سوى الإنتظار الفارغ الذي لا يتمخضُ عن شيء في مطارحات الرجال في فراش العهر حتى حدثتهُ بعد أن أجلسها بقربهِ على السرير الوحيد في كوخهِ عن أمها وأخوتها الصغار مما يعانوهُ من فقرٍ مُدقع لكن الأُم لم تتفهمها لتطردها من البيت حين عرفت بمصدر المال الذي تأتي بهِ إليها، فنبذتها كغيرها من الجيران، تنظر الوحوش المتربصة لها لكي يشبعوا غريزتهُم التي أعمت عيون ضمائرهُم المُتعفنة، رجعت إلى البيت بعد أن حررها الصياد لكن بعد فوات الأوان وما من أُمها إلا أن أغلقت الباب بوجهها فلم يكُن باب آخر يستقبلها سوى باب كوخ الصياد الذى لا يفرق بين نجسٍ وطاهر حتى يرى ما سيكون من حالهِ. وحيدة ترتجف بين يديهِ لا أن يُشفق عليها بل لتبقى قريبة من هذا الإنسان الذي لم يُلوث بأنفاسِ المدينة العفنة من نفاق وكذب ودجل و... ربتَ على ظهرها ومن ثُم أمسك بخديها بكفينِ يُشعرانها بالحنان ولسانهُ بعيد عن كلمات الشفقة يقول:

– سكنتِ قلبي وستسكُنين معي في هذا العُش الصغير لكن بشرط أن لا تسألينى عن أسمي وأبوي من هما، لأنني لستُ سوى لقيط تربى في دار أيتام أطلقوا عليَ أسماً لا أُريد تذكرهُ حتى سُحقت في بيوت التبني ليمُد لي العجوز يدهُ فيرفعني من الاسم

إلى الصفة وهي الصياد. وشيءٌ آخر يجب أن تعرفيه: أنتِ لستِ عاهرة بعد اليوم بل ستكونين القديسة لكن لا القديسةُ الباغية في حرم الربة عشتروت بل قديسة في معبد الحُب المقدس.

– احببتُ لقبي القديسة كما هو لقبك الصياد.

أُغلقت الباب عليهُما بعيداً عن نيران الحياة التي تلتهُم أهل المدينة بما فعلهُ، فهي المرأة التي أتت في وقتها لكي تكبح غضبهِ ويأنس بها وتُطفأ نار حُبه كي لا يسقط في فخٍ يختبئ في ظِل النفس. في يومها ناموا ملئ جفونهُم في لذةٍ من الحُب لا مثيل لها، أصمتت فيها عواء الرجال الذين كانوا يحومون حولها في الليل والنهار، وطيبت جراح عضاتهُم المسمومَة التي تشل الروح وتُقعدها في باحة العُهر الذهبية بعبقٍ من بخور وثني يُقدس لذة الجسد ويرمي بلذة الروح في صحراء الوحدة القاهرة. عطشها يلهث وراء سراب الحُب كانَ، لكنها اليوم أرتوت من بئر الحُب بعد أن وجدها الحبيب في قلب تلك الصحراء التي تعوي فيها الوحشةُ وتتشرب صمت البؤس في روحها، قشع كُل هذا من روحها بلحظة تناغم دقات قلبيهما المترعين بلذة الحب حتى هدئا. ثملتٌ بحبهِ من موقفٍ ونظرةٍ من تحت لثام لا استغراق في ملامحهِ الشهوانية الجميلة حتى تبعتهُ غير مباليه بالأخطار التي ممكن أن تنال منها في تلك الليلة والليالي التي ستبقى بها هُنا في كوخ السعادة هذا، فحينما توجد الحُرِّية يجب أن تسلك أكثر

طُرقها وعـورة لأجل ذلـك الحبيـب، لا أن تظـل تنظر لنجوم السـماء تنتظـر شُـهبا تتمنى مـن خلالهـا أمنيـة كي تتحقـق فيهـا سـعادتها مع الحبيـب المُنتظـر، قفـزت علـى الأمنيـات لتُحقـق أسـطورتها بقـوة سـاعدي الصيـاد حتـى وإن كان لوقـتٍ محـدود، فالعيـش بسـعادة لأيام أفضل من الِانتظار في فراغ تلك الأيام.

الْقَاضِـــيُ

✵ 1 ✵

يتأرجح ميزان العدالة في عينيه، يزداد تأرجحاً كُل يوم يحضر فيه محاكمة أحدهُم، فالذين يُظلمون يخرجون وعيونهم تدمع قهراً والذين ينظرون تملأ عيونهُم دموع الفرح. تتعالى الأصوات بمناجاة الْقاضِي وهو جالس بين مساعديه لكنهُ ينظر شزراً فيخرج من الباب الخلفي إلى عالم نجس يسلب العدالة من بين يديَ الْقاضِي المنغمس في ملذاتهِ وهي تلبى من جيوب الأَغنِيَاء والسياسيين السراق الذين مصوا دم الشعب ليتغذوا عليه وتكبر كروشهم بهِ. يسوق الفقراء الذين دفعهُم الحُكَّام والأَغنِيَاء إلى التسول والسرقة إلى السجن ويطلق الحيتان التي سرقت لقمتهم من أفواههم الجائعة. يشم رائحة عفن تخرج من فمهِ المليء بالجيفة ورأسهُ الأَصلع وكأنهُ صخرة صلداء، يتبعهُ بين الشوارع والأَزِقَّة في الليل والنهار، يراقب بيتهُ فلم يجد في هذا اليوم سواهُ يتنقل بين أروقة جوف البيت وحديقتهُ بعد أن غادر أهلهُ إلى مكانٍ ما، حاملين حقائبهُم الكبيرة بسفرٍ طويل. دَقَّت مطرقة عدالتهُ فعَمَّ الهدوء بالبيت وخرج لهُ وهو في مكتبه يدخن سيجارتهُ التي ملئت فاهُ. صرخ في وجههِ:

- من أنتَ وكيف دخلت إلى هُنا؟!.

- أنا حامل سيف المظلومين الذي سوف يقطع رأسك.

نهض مرتبكا، يبحث في درج المكتب عن سلاحه، مسكَ يدهُ وتفرس في عينيه الخائفتين وفمهُ يتكلم بكبرياء وغرور:

- أتعرفني من أكون؟!.

- ولأجل هذا أتيتُك اليوم.

- أنا قاضِي المحكمة.

- وأنا قاضِي المدينة.

- تتفلسف عليَ أيُها المجرم!.

دفعهُ وأجلسهُ على كرسيه الجلدي الواسع وكرشهُ يهتز، وقف خلفهُ، حَنَّأَ رأسهُ وهو يشم جيفتهِ ويرميهِ بصواعقٍ من كلمات:

- ليست كفلسفة عدالتك النتنه.

- سأعطيك نقودا وذَّهَبا، أي شيء ولكن فقط أتركني أعيش.

- لا تستطيع أن تشتريني كما اشتروك بالذَّهَب والمال.

- لا أحد اشتراني!.

- اشتروا ضميرك فنكثت بقَسَمك الذي أقسمته بإحقاق الحَقّ.

- لم أفعل شيئاً ولم أظلم أحداً.

- فعلت الكثير، فقد ظلمت العشرات المغلوبين على أَمرهُم وأطلقتَ السراق ليسرقوا ويعطوك أكثر.

أخرج سكينهُ وهي تلمع بضوء شمس المغيب الحمراء، عدلَ رأسهُ وغرزها في عنقهِ قبل أن ينطق بكذب الكلمات، فندَ شخير طلوع روحهُ المتعفنة في جسدٍ مترهلٍ نجس. اِنتظرَ حتى خرجت

روحـهُ وصمت ثُم سـحب السـكين وقـام بجَزَّ رأسـهِ الأصلـع الصلد الـذي يعاند السـكين بقوة جـذرهِ ولكن سـاعد الحـقّ اِقتلعـهُ ووضعهُ في كيـس. نظـر إلـى مكتبـه فوقعت عينـاهُ علـى مطرقـة العدالـة التي يطرق بمثلُهـا فـي المحكمة وهي تعلـن عن الحكـم النهائـي. أخذها ووضعهـا فـي جيـب سـترته. غمَـسَ إصبعـهُ مـكان رأسـهِ المقطوع وكتب خلفُه على الجدار:

«بموتهِ تحققت العَدَالَة.... وبرأسه سيتَّزن مِيزان العَدَالَة»

خـرج تحت جنـح الليل، يخطـو بخطـواتٍ هادئة ومتزنـة. لا يرى أمامـهُ سـوى هدفـه وهـو بـاب المحكمـة التـي نحتـت علـى جبينها مِيـزان، يتعمق في جـوف المدينـة خطوة بعـد أخرى والصمـت يزداد والـكلاب تختبـئ مـن أَشـباح الليـل الجائعـة وهـي ترمقـهُ بعيونهـا الخائفـة. اِعتَلـى درجـات التـي تؤدي لبـاب المحكمـة المغلـق، نظر يمينـاً وشـمالاً فلـم يجـد أحـدا . تسـلق بـاب المحكمـة المخـرم بالحديـد، قفز ومشـى مسـافة يحمل فيهـا درج فـلاح الحديقـة الذي يسـتعملهُ لتقليـم أشـجار حديقة المحكمـة، أرتقـى السـلم المعدني، أخـرج الـرأس ودقـهُ بمسـمار أخرجهُ مـن جيبـه فـي جبهتـهِ بمطرقة العَدَالَـة، اختـرق بيضـة قَبّـان مِيـزان العَدَالَـة. نـزل ووضـع مطرقـة العَدَالَة في جيبهِ وفمهُ يهمس:

«اِتَّزَنَت كَفَتا المِيزان بدَقَّ رأسه فوق بَيضة القَبّان»

✵ 2 ✵

وضع مطرقة القاضِي الخشبية على المائدة الصغيرة في القبو. رجع خطوة إلى الخلف ليلتفت وإذا بهِ يصطدم بصوتها قبل وجهها:

- لماذا تحتفظ بذكرى ممن اصطدتهُم؟!.

- إذا أرعبتك هذه الذكرى فلا تنظري لها.

- ما يرعبني حقاً هو شيءٌ فيك.

- من يرتعب مني فهو مذنبٌ يطالب بقصاصه.

- حينما يراك مُذنب ألا يحق لهُ أن يسأل!.

جلس على الكرسي المقابل لها، نظر بعيني غضب في عينيها وهما يلتمعان بخيبة مكبوتة في عمق حمارهُما وينطقان بحرارة من يريد أن يُنْقِذُ محبوبهُ:

- تخلص من ذكراهم كما خلَصت الإنسان منهُم.

- أترين فيّ صورة القاتل!.

- أنهُ صغير في داخلك الآن فلا تدعهُ يكبُر فيحرفك عن قضيتُك.

- حواسكِ مستنفرة ونظرتُك ثاقبة!.

– أنتَ في لُجة المعركة وعليَ أن أُنبهك متى ما انحرفت.

– رأى فيكِ قلبي صمام أمان مستقبلي.

– ورأيت فيك المُطهر لا القاتل.

نهض من كرسيهُ وأخذ كيسا وضع فيه كُل ذكرى علقها، فعقد رأس الكيس ومَدَّ لها الكيس:

– أَحْرَقيها حتى لا يكبر القاتل في ذاتي.

– بل أنتَ من عليهِ أن يحرقها حتى يموت القاتل في داخلك ويصرخُ حتى الموت.

وضع الكيس في قعر أسطوانةٍ معدنية قديمة، رشَ البنزين عليه وأضرم فيها النار وهو يتعرق ويتألم القاتل في داخله الذي ينادي على كنزهِ الذي تأكلهُ النار بشراهة. أَمْسَكَت بكتفيهِ واِحتَضنتهُ من الخلف وهي تهمس لهُ:

– لا تصغي إليه.

ثقلت أَنفاسهُ وهو يصارع حتى خَبتَ النَار واِنْطَفَأَت ليقول:

– دفنتهُ بقوة ساعديكِ تحت رماد ذكراهُ.

✵ 3 ✵

عيونٌ يملؤها الخوف وقلوبٌ فرحة، ضجيج وتساؤلات تطرح من الطفل إلى الشيخ الكهل، من علق هذا الرأس على باب المحكمة وأحكم دقهُ في بيضة قَبّان المِيزان؟!. منهم من عرفهُ ومنهم من لم يعرفهُ، إنهُ قاضِي قضاة المدينة. تختلج نفوسهم بالفرح للمصير الذي لقاهُ على يدي حامل لواء المظلومين، لكن وجوههم ترفض أن تغير ملامحها خوفاً من السلطات التي تطوق المكان ونفوسهم. تحول الهمس إلى ضجيج ودبت الفوضى بعد أن أمر ضابط الحرس الذي ينتظر وصول المحقق بأن يسكتوا فلم يمتثلوا لأمرهِ، أطلق عدة عِيارات نارية لتفريقهُم ونجحت نصف خطتهِ لكن هُناك من بقى بعيداً يراقب ما سيحدث وكيف سينزلون الرأس بعينيه الجاحظتين بعيون من ينظرون لهُ. جاء موكب المحقق الذي نزل فرأى المشهد وكأنهُ لَقْطَة من فيلم سينمائي، هزَ رأسهُ ودسَّ في فمهِ سيجارة وهو يقترب من الرأس، ينظر إليهِ وقد تحطمت جدران التستر التي بناها حول من يغتال هؤلاء الأشخاص بِانتقاء عالي. اِضْطَرَبَ وأعلن بيأس لنفسهِ أن الأمر أكبر مما توقع ويزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، فسلطته لم تعد لها فائدة بوجودهِ. سرق منهُ لِّوَاء العَدَالَة في وضح النهار، بعيداً لا يراهُ إلا إذا أرادَ هو أن يريه، ليعلن للكل أنهُ موجود ويجب أن يكشف سنن قوانينهُ للناس والقذرين بصورة خاصة. اِلتَفَتَ إلى مساعدهِ وقال:

– أنزلوا الرأس.

نُفذ الأمر بسرعة ووضع الرأس في كيس والجماهير تهمس وتضج بين الفينة والأخرى، يرمقهُم بنظرات المهزوم الواقف بين السندان والمطرقة التي تقترب على رأسهِ يوماً بعد يوم، لتقضي على السلطة الزائفة التي يقرؤها في عيون الناس وهي تعلم أن الذي قام بهذا الفعل إنسان شريف لهُ غاية سامية بتطهير المجتمع من قاضٍ فاسد ومرتشٍ سجن ما سجن من الفقراء وأعدم من لم يستحق الإعدام، ليحرر من حرر لهُ صكٌ تقفز فيه الأَرقام من الأَعلى الى الأَعلى. بدأ الناس بالإنتِشار وأفواههم تلوك الكلام دون أن تبلعهُ والمحقق يسمعهم يقولون أنَّ القاضي سيشوى في الجحيم وغيرهُ من يقول خلصنا منهُ ومن زمرتهِ وآخر يهمس لنفسه قائِلاً سيكون درسا لكُل فاسد. تفصدَ جبينهُ عرقاَ، محموم من مناصرة الشعب لهُ، ويغضب من نفسهِ التي تتمنى أن يقوم هو بهذا الفعل لا غيرهُ. صَعدَ السيارة مع مساعده وقال بغضب:

- اِنطلق إلى بيت القاضِي فهُناك الكارثة.

كُلما أسرعت السيارة أَرادَها أن تُبطيء، لأنه يتوقع هزيمةٌ نكراءَ هُناك، فلا دليل سيجدونهُ، يقتفون أثر شيءٍ ما لكي يمسكوا بهِ في كُل مرة لكنهُ يختفي بسرعة. عندما تتوالى الخيبات في النفس فإنها تولد السأم. فكثرة الضربات على الرأس تجلسك على الأرض. لم يتكلم على طول الطريق، يدخن وعيناهُ تتفرسانِ الفراغ بينهُ وبين مرآة السيارة ولا يستطيع أن يصرخ أن لا فراغ

هُنـاك فهـو يـراهُ ويعـرف مـا ينشُـد لـهُ وهـذه هـي المصيبـةُ الكبرى. اليـوم هيج نفـوس الشـعب القابعة خلـفَ قضبـان الخـوف، يدعوهُم إلـى الثـورة التـي سـوف تطالهُـم مـن شـتى الأيـدي. اِعتَصَـرَ الألـم داخلـهُ لا خوفاً علـى نفسـهِ بل حُزنـاً على نفسـهِ التـي لا تسـتطيع أن تعارض كلمـة الحقّ وهـذه الكلمة لـم يقولهـا المحقـق ولا رفاقهِ بل قالها شـخصٌ مـن وراء حجـاب المدينـة. نزل من السـيارة ولـم يكُن هُنـاك سـوى بضـع إعلاميـن ولكنهُـم بـدأوا يتجمعـون. دخـل إلـى المكتـب فـرأى الجُثـة الضخمة بـلا رأس وأظافرهُ خرمشـت خشـب الطاولـة، فقـد جَـزَّ رأسـهُ بـلا قيـود فـي معصميـهِ. كُتبـت التقاريـر وتحدثوا حولـهُ عـن الجريمة بتحليـل مفصل لكنـهُ ظَلَّ صامتـا، ينظُر إلى العبارة المكتوبة بالدم:

«بموتهِ تحققت العَدَالَة.... وبرأسه سيتَّزن مِيزان العَدَالَة»

اِلتَفَت إلى زملائهِ وهو يبتسم بغضب ليقول:

- اِتَّزن مِيزان العَدَالَة.

الجَنِـــــرال

✵ 1 ✵

جذبـهُ شـجارٌ عنيـف بيـن رجليـن، أحدهمـا ضخـم الجثـة علـى وجهـهِ آثـار ضربـة سـكين والثانـي ممشـوق الجسـم، أنيـق الملبـس لا يعـرف كيف يسـدّد اللكمـات التـي اِنهالَت عليـه كالمطـر، فأدمت وجهـهُ ورضـت ضلوعـه. يمسـك بياقتـهِ وبغضـب يصـرخ بوجهـهِ: أنتَ لا تسـتطيع أن تدافع عن نفسـك، فكيف سـتدافع عـن المدينة؟. ثُـم قـال بصـوت عـالٍ: هـذا الرجـل يدعـوا إلـى السـلام مـع أعدائنا خـارج أَسْـوَار المدينـة ولكنـهُ ليـس بسـلام بـل هـو الِاستسـلام والخنوع والركـوع كالعبيـد تحت أقدامهـم، مثل هـؤلاء لا يصلحون لسـاحات القتـال. دفعـهُ فارتطـمَ بالجـدار، أرتـدَ وهـو يجاهد نفسـهِ ليقول بضـع كلمـات تخـرج مع الـدم مـن فمـهِ وأنفـهِ: أنتـم تريدون الحَرب يـا دُعاتهـا، فالحَرب توجـد أينمـا تتواجدون. صمـت الناس أثـار الصيـاد أن كيـف لا أحد يتدخـل بينهـم وخاصة أن هـذا الضخم قد يقضـي عليه ولكنـهُ ضحك علـى ما قالـهُ المضـرج بدمائـهِ، ليَدنُو مـن وجهـهِ ويصـرخ: عندمـا كُنت فـي سـاحة القتال لا أشـعر سـوى بتمزيـق الأجْسـاد لكـي تحيا أنـتَ ومـن معـك بسـلام آمنيـن. ثُم رد عليـه: ألا يكفـي مـا مزقتـهُ مـن أجسـاد ولكـن الذي يشـرب الـدم لا يحلـو لـهُ مـذاق المـاء. أراد الجَنِـرال أن يهجـم عليـهِ لكـن بضـع أصدقـاء لـهُ وصلـوا وأمسـكوا بـهِ ولازالَ يصـرخ يريـد أن يقتلـهُ ليأخـذوهُ بعيـداً. تفـرق النـاس بعـد أن انتهـت المعركـة التـي تلذذوا

بهـا واِسـتمتعوا بخرسـهُم الـذي نطَـقَ عنهُـم هـذا الشـاب المثقـف المسـالم الـذي يريـد أن تعيـش مدينتـه بسـلام دون قِتـال. وقـفَ مترنحاً يُخاطـب أبناء المدينة: كُلكم جبناء لا تسـتطيعون أن تخرسـوا هـذا وغيـرهِ مـن المتعطشـين للدمـاء، ما نفعكـم وأنتـم تسـاقون إلى سـاحات القتـال وتصرخـون أنكـم منتصـرون، أي اِنتصارٍ هـذا الذي تعلـو رَّايَتـهُ فـوق جبـلٍ مـن الجُثـث. دقَّ ناقـوسُ الإنْـذارِ فـي قلـب الصيـاد الـذي تـرك الشـاب يهتـف مـن وراء ظهـره، يعـدو بخطواتٍ واسـعة لكـي يلحـق بالجَنِـرال، بَانَـتْ لـهُ لَمَعـان صلعتهِ تحـت ضوء الشـمس، محاطـا بأصدقائـه الذيـن يتفرقـون بيـن الأَزِقَّة الواحـد تلو الآخـر ليتركـوهُ وحيـداً يمشـي إلـى بيتـه الواقـع علـى ضفـة نهـر المدينـة. دخـل فتوقـف يتفـرس مداخـل البيـت ومخارجـه، يدلـف الجَنِـرال داخـل البيت مـن بين نَّافِـذَة وأُخـرى يـراهُ يتجول فـي دارهِ، هبَـطَ الليـل ولازالَ وحيداً فـي البيت، مغمـض العينين، مسـترخيا في وسَـط الصالـة التي لـم ترهـب الصيـاد وهـو يـرى سـيفين يحتضنان درعـا فـي قلـب تقاطعهمـا ورؤوس حيوانـات محنطـة وصـورا مـع أصدقـاءه الجَنِـرالات فـي أرض المعركـة والجثـث محاطـة بهـم. أيقظهُ سواد ظِلهِ على وجهه فتفاجأ قائلاً لهُ:

- من أنتَ وماذا تفعل هُنا؟!!.

- لا يهُم.

- كيف وأنتَ في بيتي!.

شهرَ مسدسهُ ليسألهُ:

- هل هذان السيفان والدرع لكَ؟.

- إذا أردتهم فخذهم .

رفع مسدسهُ بوجههِ العاري من الشجاعة، فرفع ذراعيه وفمهُ يُجيبه:

- نعم إنهما لي.

رمى لهُ حبل وقال:

- أجلس هُنا وأربط رجليك برجلي الكُرسي.

- أنا لم أفعل لهُ شيئا سوى أنهُ اِسْتَفَزَّني، فلا تعاقبني على شيء لا ذنْب لي بهِ!.

- لم يرسلني أحد والآن نفذ ما أمرتُك بهِ.

ربط رجليه بالكرسي والخوف قد سرقَ منهُ رباطة جأشهِ:

- لا تقتلني ..أرجوك.

- لن أقتلك بل سأُعاقبك.

نظر إليهِ بعيني من عرف شيئاً ما من وراء لثامهِ، ثُم قال:

- أنت الذي قتلت القاضِي والذين سبقوهُ؟!!.

أغلق فمهُ بخرقةٍ وسخة وأنزل السيفين والدرع، رفع يدهُ اليمنى وغرز السيف في كَفَّهُ مخترقاً الحائط الخشبي الذي يتوسط الصالة، ضرب بيده اليسرى لكن ضرباتهُ تراخت واستسلمت.

صرخة مكتومه وجبين يتفصد عرقاً من جراء ألم السيف الحاد المُخترق كَفَّهُ الذي ثُبت بالحائط وكذلك كَفَّهُ الأيسر. ثُم شق قميصهُ لتظهر بطنهُ المتهدله وربط الدرع على صدره بحبلٍ أخرجهُ من حقيبته. سال الدم من كَفَّيه المثبتَتين على الحائط فوقَ رأسه على الجانبين. لَمَسَ بأصبعه الدم وكتب بقوة سبابته على الحائط بين السيفين:

«لا تقرَع طُبول الحَرَب وإلا قطَعت لك كَفَّيكَ»

✵ 2 ✵

جردهُم من لِبَاس العدالة المُزخرَف الكاذِب وعراهُم أمام الناس جميعاً، صوت الحق خنق في حناجرهُم بعد أن أطلق صوتهُ عالياً يغني بين الأَزقة والشوارع وعلى قمم الجبال وفي عمق السهول والوديان. عاجزين يتلفتون لا يقدرون على فعل شيء وإن أَرادوا أن يفعلوا شيئا فلا طريق لهُم سوى الكَذِب على الناس ببعض الجمل المُنَمَّقَة التي لا تَطْمَئِنُّ لها القلوب ولا يعيرها الناس أهمية لأن رسالتهُ قُرئت في نفوس الناس، نورها يشع طمأنينةً وأمان. أيديهُم على قلوبهُم بعد أن كانت على مسدساتهم التي أصبحت لا فائدة منها، فهي معلقة على خصورهم يجثُم الرصاص فيها مكبوت الصوت، تتلهف لمن يضغط الأَزْنِدَة لتنطلق في قلب الصمت لكن من يجرؤ على لَمسها وهُم الذين أَصبحوا المذنبين بعدما كانوا يطاردوا المجرمين. هكذا هو صمت الشرطة طغى عليهِ بُكاء زوجتهِ التي أتصلت بهُم وعلى رأسهُم المحقق لا تفصيل عن الجريمة لأن فاعلها واحد يقفز من رأسٍ إلى رأس لكن وقع كلمات الدم أقوى من الكلمات التي كُتبت والتي سوف تكتب بالحبر. جَالَ المحقق ببصره بعد أن نُقل الجَنِرال إلى المستشفى وهو يتذكر كلمات الجَنِرال حين قالَ: لم أرَ في حياتي رجلاً جسوراً مثلهُ. يمدح عدوهُ الذي عاقبهُ، ثُم أضاف: لن يتوقف عن قتل ومعاقبة كُل من

يـراهُ مذنبـا. لكـن المحقـق قـال لـهُ: وكيـف عرفـت ذلـك؟، سَـخِر ضاحكاً بجـواب ملـيء بالإعجـاب: عندما نظـرت في عينيـه لم أجد الخـوف وكأنـهُ جنـديٌ لا يهاب الرصـاص فـي المعركة. هناك شـيء مـا جديد فـي هـذه القضيـة!. تحـدثَ مـع نفسـهِ مُستفسِـراً: إنَ الذي حَـدَثَ كامـل لـم ينقـص منـهُ شـيئاً، فقارنهـا مـع الجرائـم الأُخـرى فوجد أنهُ لم يأخذ تَذكارا من الجَنِرال. نادى على مساعدهِ يقول:

- إنهُ لم يأخذ تذكارا كما فعلها مع الآخرين!.

- سيدي، أصبح أكثر حذراً.

- ممكن هذا لكن هو لا يخشى شيئاً.

- أنا اعتقد أن أحداً ما حذرهُ أو قال لنفسه: أن التَذكار سيكشفهُ.

- هذا هو الذي اَردت سماعهُ، لكن من الذي نصحهُ؟.

- لا أعرف!.

- كُلما أردنا اِقْتِفَاء أثرٍ لهُ يتلاشى!.

لا شـيء سـوى عبـارات الـدم التـي صبغـت وجوههـم بالحيـرة، والتسـاؤل: أن كيـف لواحـدٍ يقتـل ويعاقـب أن يصـوغَ هـذه الجُمل. مـن أين أتـى؟ وفـي أي مكان تربـى؟، ومـن علمـهُ؟. فلا شـيء كهذا يصـدر مـن الفـراغ. تتبـدل الوجـوه بيـن الغضـب والحيـرة والعجـز لكن المحقـق شَـمر عن سـاعدهُ ولطـخَ كفـهُ بالدم السـائل مـن كفي الجنرال، رفعها بسرعة بعد أن تلطخت بالدم وقال:

- ادْخُلُوا الصحفيين إلى هُنا.

تَرَدَّدَ المساعد في تنفيذ الأمر ليقول لهُ ناصحا:

- سيفضحوننا ويجعلوهُ نجماً.

- قلت ادْخُلُوا الصحفيين.

ثوانـي ودخـل الصحفيـون وهُـم يرشـقون المحقـق بالأسـئلة وبضـع كاميـرات تلتقـط الصـور لكفـهِ الملطخـة بالـدم ونظـرات التعجـب تُحيـط بـهِ، صَـرَخَ المحقـق بهُـم: أن أَسـكتوا. سـكتوا وانتظـروا مـاذا يريـد أن يقـول. لكنـهُ اِلتَفَـتَ إلـى الجـدار المكتـوب عليـه بالـدم وضغـط كَفَّـهُ تحـت عبـارة الصيـاد ثُـم كتـب بنفـس الدم تحتها:

«هذه الكَفّ ستخنقك»

✵ 3 ✵

تمشي بين أشجار الغابة وهي شامخة تتطلع إلى شمس الصباح التي تشرق من خلف الجبال، لا صوت في قلبها سوى صوت أمها وهي تطردها من عالمها لترميها منفيةً في أَحْضانُ حبيبها. تخلَّوا عنها كُلهم، حَفِيفُ الأشجَارِ زَادَ من وحشتها في الغابة وزقزقة العصافير لم تبعث الأمل في قلبها المتعب من هِجْرانَ الأهل، نظرت إلى السَّماءُ تسير غيومها مسرعة وزرقتها كزرقة البَحْر تخفي وراءها غضبا لا يردهُ إِنْسيٌ ولا جَانَّ. تتلمس بطنها والدمع في عينيها يحتقن من الخوف على هذه البذرة التي ستجد أم لم تجد من يرعاها بعد صاحب الثورة والتائبة من العهر، فكيف سيتحمل كلام الناس وهُم يذبحوهُ بالنظرةِ والكلمة بسبب أمُّه التي نامت مع نصف رجال المدينة؟. حملها من يقض مضجعها الآن ليس خوفاً منهُ بل خوفاً عليهِ من أنياب السمعة المهشمة على أعتاب الأقدار الضاحكة عليها، فهو طفلٌ من زيجتين لكلُ واحدٍ منهُما لونهُ، الأب يحمل راية الثورة الحمراء بقلبٍ مليء بالمعرفة والأُم رايتها بيضاء لكنها ملطخة بدم عذريتها وبصمات إبهام رجال المدينة شوهت نقاء بياضها. لا يرون سوى هذا بعيونهُم الفارغة التي ستجرح طفلها حين يكبُر لكن لا حل وجدتهُ في لحظات تأملها هذه سوى أن يربى بعيداً عن وكر الملاعين الذين سيشرحونهُ بسكاكين شرفهُم الصدأة والعمياء من

ذبحها ذوات عفتهُم بأيديهُم لكنهُم لا يرون ولا يشمون دماء ذواتهُم لأن لمعان سكين أحدهُم يعمي بصيرتهِ ليبقى يتحسس قبضتها التي تجز بجهلٍ ذوات شرف الآخر. خاطرٌ آخر كان يقض مضجعها ألا وهو عشيقها، هل سيطردها حين يعلم بحملها؟ فهو في مسيرة ثورتهِ التي تضعهُ في خطرٍ دائم فما سيكون منهُ من ردة فعلٍ بأن الحمل أتى بغير وقتهِ، وغيرها من الهواجس التي أخافتها بشدة وأعظمها أن تخسر حبه للأبد، فبقت مكتئبة حزينة حتى سمعت هشهشة أوراق الأَشجار اليابسة من خلفها لم تَلْتَفِتْ، جاءها صوتهُ:

– إله السَّماء في نفوسنا.

– بل انظر إلى سمائهُ الصافية بعد أن تلبدت سَمائي بالغيوم.

– ومن لبدَ سَماءك بالغيوم؟!.

– طفلك.

اِبتَسَمَ وهو يحتضنها من الخلف وشفتاه تُقبّلَان رقبتها، يلفها بذراعيهِ أمامه، ينظرُ في عينيها :

– هذا الطفلُ حررك منهُم ورماكِ في أحضاني إلى الأَبد.

– خوفي تلاشى من وراء قُبلاتك.

– وما الذي كان يُخيفكِ؟!.

– أن تنبَذني والطفل كما نَبذوني أهلي.

– هذا الطفل هو نهايتي وبدايتي.

– وأنا؟.

– أنتِ الجسر الرابط بين البداية والنهاية.

دَبَّتْ الحياة فيهم فأصبح الماضي ماضياً والحاضر حاضراً يعيشونهُ بلا خوف أو ترقب من أحد. سائرين في طريقٍ معاكس لكُل الطرق، يشربون من نهرٍ لا يصُب في قريةٍ أو مدينة لكنهُ يصبُ في البَحْر. يأكلون من صيد أيديهُم لا نُقود تتراقص في جيوبهُم ولا حليٌ تسرق زهدهُم. يحتضنهُم الكوخ النَابِض بالحياة، ولا شيء يسمع سوى غلق باب كوخهُم الذي يفزع قلوب المتربصين بهُم من بين ثنايا الغابة التي تحمل الغضب والهدوء في نفسها، تتعطش للدماء كما تتعطش للماء فهي من الأرض وإلى السَّماء يرجع حُكمَها.

السِّياسيّ

✵ 1 ✵

يسمعهُ أين ما حل وأين ما وُجِدَ، بتلك الـهَيْبَةُ التي تستحوذ على قلوب الناس وصوتهُ الذي تَشْمَئِزُّ نفوسهُم منهُ، يقذف الكَذِب والنِّفَاق والخبَثُ والتلاعب بالكلمات من لا شيء إلى شيء سيكون ولكنهُ لن يكون كما في السابق، سيبقى حتى تَبَخَّر في اللحظة التي ترك فيها المِنَصَّةُ. مُتَلَوِّنٌ كَالحِرْبَاءِ في كُل سنة يَلْبَسُ لِبَاسا جديدا يخدع به الناس ويسقط هالتهُ المقدسة على قلوبهُم فكأنهُ ينيمهم مغناطيسياً لحين اِنْتِزاعُ أَصواتهم ويرميهُم بعدها. هكذا يقف كُلَ عام على مِنَصَّتهِ التي يتغير لونها مع علم حزبهِ وراءهُ، وهذا الصِراع المخفي واضح في عيون من ينظرون لهُ. لكنهُم لا يملكون الإرادةَ لتحطيم أسنانهِ وقطع لسانهِ الذي شاخَ وهو يتلاعب بهم. هُتَافُ وصيحات مُنَدِّدة لكن صوت المُتَمَلِّقين أعلى من صوت المُتَمَرِّدين، يحييهُم بيدهِ وشعرهُ الأبيض تلاعبهُ نَسمات الربيع التي تمر عليهِ بزَهْو وهو يرى هؤلاء العَبِيد قد اِنْجَرَّوا إلى فَخّهِ وسيسقطون به غداً عندما يخطف أَصواتهُم ويَكْبِتَها بقفل الصندوق، ليذهب بها إلى نعيمُ الباطل تاركاً وراءهُ الخراب بشتى أنواعهِ من أمراض وجوع وإنسان مُحَطِّمٌ لم يُعلم كَبتَ الباطل بصوت الحَقّ بل كَبتَ الحَقّ بصوت الباطل وهو يَصدَح في سَّماء المدينة الخربة المتهالكة بأصوات أبنائها الجبناء. انسل من بينهُم ويديه تشتاق لتلك الرقبة

الحمـراء كأنهـا رقبة عجـل. وَقع أقدامـهِ والأَصـوات حولـهِ اختفت، يمشـي بهـدوء ويراقب مَوكِبُـه بالسـيارات السـود تحرك كأنـهُ مَوكِب جِنـازة. رَكِـبَ دَرَّاجَتَه الناريـة وتبعهُم ليعرف أين يسـكن هـذا النذل، يزيـدون سـرعتهُم ويزيـد سـرعتهُ مـن خلفهُـم حتـى اخترَقـهُ هـواء الربيـع وشَـحَذ إرادتـهِ المُورِقـة الخضـراء وتنفسـت شـجاعتهُ هـواء الكِبْرِيـاء والعِـزَّة. اصطفَّتِ السـيارات أمام فنـدق الـوردة الحمراء ذو الخمـس نجوم والجالـس في قلـب المدينة بصرحـهِ الكبيـر وأَضوائهِ الصفراء تُضـيء كُل شُـرْفَةُ، ومدخلهِ المَلَكـيّ بأعمدتـهِ المذهبة وهي تسـتقبل مَوكِـب المرشـح السياسـي، ينحني رئيـس التَّشـريفات بباب الفنـدق حتـى وقـفَ مَصْبُوبـا كأنـهُ تِمْثـال لثعبـان المدينـة الداخـل عليهُـم. بقى جالسـا علـى دَرَّاجَتَـه ينتظر أي الشّـرف سـتضاء فيعرف مكانـهُ. مَـرت دقائـق وعيونهُ تحَـدق كأنهمـا عينا نسـرٍ جائـع، لتلتقط عينـاهُ ضـوء الشُّـرْفَةُ فـي الطابـق الخامس مـن عشـرة طوابـق. تَرَجَّلَ من دراجتهِ ومشـى مسـتديراً خلف الفنـدق يبحث عـن أدراج توصلهُ إلـى الطابـق الخامـس. وَجَدَ السـلالم وتسـلق درجـة فأخـرى ليصل إلـى الطابـق الخامـس واقفـاً ينظـر بحَـذَر وهـدوء يراقـب مـن فتحة البـاب عنـد رأس السـلم الداخلـي، لـم يجـد أحـدا، تقـدم خطـوات متتابعـة حتـى وصـل إلـى ممرّيـن الـذي علـى اليميـن فـارغ تقـف أبـواب الغـرف صامته علـى جانبيـه، أمـا الصف علـى اليسـار فوجد ضالتـهُ بأثنين مـن حرسـهِ الخـاص بعد مـا تـوزع الآخرون فـي باحة الاسْـتِقْبَال والشـارع. لـم يفكـر، ممكـن يوجـد حـراس فـي داخـل

الغرفة، بسرعة تَلَثَّمَ وأخرج مسدسهُ وهو يسرع باتجاههُم، نادَوه: من أنت؟.. قفّ مكانك.. لم يقف حتى ضرَب أحدهُم على رأسهِ بقبضة المسدس الخشبية والآخر بقبضتهِ على وجنتهِ ثُم ببضع لكمات أفقدتهُ وعيهُ. صَاحَ من الداخل: ما الذي يحدث في الخارج، كُل شيء على ما... لم يُكمل جملتهُ حتى خَلَعَ باب الغرفة بركلة، ارتعبَ وسقط على الأرض وظَلَّ يزحف والصياد يتبعهُ بهدوء ويتمتم بكلام غير مفهوم. جلسَ على السرير، قَبَضَ على رقبتهِ بقوة فبقى يرفس برجليهِ ويديهِ وعيناهُ تريدان أن تخرجا من مَحْجِريهما، ليستسلم جسدهُ المُرتَعِش تحت قبضتهُ ليتركهُ يَسْقُطُ ميتاً في فراشٍ أبيض لونهُ كلون الثلج. لم ينتهِ منهُ بعد، أخرج سكيناً صغيرة وغَرزها في لسانهِ ولم يسحبها تركها مزروعة في منتصف لسانهِ المُتَدَلّي خارج شفتيه. نزلت قَطرات من دم حار على ذقنهِ بعد أن أسندهُ على رأس السرير، يمشي على صدرهِ دمهُ بخط لا يوقفهُ شعر صدرهِ الكثيف. لمسَ إصبعهُ الدم ليكتب فوق رأسهِ:

«لسانُ الأفعى هذا لن يَلْسَع الناس بعد اليوم»

واِستَمَرَّ الصياد يكتب تحتها:

وأنتَ أيها المحقق:

«كَفّك تخنق صوت الحَقّ وكَفّي تخنق صوت الباطل»

✵ 2 ✵

في البيت تلاحق أحدهما عينا الآخر، تقرأ وتفسَّر ما يَجُولَ في الخاطر والفكر، فالألسُن ربطت بلِجّام النفس المُشبَعة من معرفة الآخر. لا وجود للكلمات في قلب الثورة المُسْتَعِرة التي تحرق كُل ما هو حِبر على ورق أو لفظٌ يترجم إلى كلمات تخرج من بين الشفتين. الأَفْعَال هي من تنطُق وتَحَفُّر في نفوس الناس المَسْلوبين الإرادة لتستنهض فيهُم روح الثورة التي غادرتها وسَكَن مكانها وحشٌ يَبْتَلِعْ كُل خاطرٍ لتمرُّد أو نسمةٌ باردة تُبَرِّدُ أَنْفَاس الوحش الكاسر الذي يُصرع تحت ضَرَبَات الصياد يوما بعد يوم، مريض الآن يُكَابِد للنهوض لكنهُ مُقْعَد يصرخ ولا يَلْتَهِم تلك الخواطر والتأملات التي تنمو إلى شجرةٍ تكبُر بمرور الزمن ولكنها الآن نبتةٌ يُحاول أن يقتلعها فلا يَقْدِر، المسافة بينهُما مَلْغُومة ومُحَرَّمَةٌ ومحمية بأنفاس العَدَالَة التي تَرْوِيَها كُلما شعرت بالعطش. هذه النبتة لن تسقى بعَدَالَة الصياد فقط بل يجب أن يحمل غيرهُ اللواء لكي لا يسقط ذَاك الرمز الذي بعَثَ الأمل في الأَرواح المُقْفِرة. الذي ينمو في بطنها هو فَجْر المستقبل وعمرهُ بعُمر تلك النَبتة التي بذرها، هي توأمهُ الذي سيحيا ويموت من أجلها لتكبر وترتفع في سَماء نفوسهُم القاحلة ويَسْقِيها من رَحيق قلبهِ ويقدسها بقَرَابين من الأَراذِلِ والمُفسدين والظَّالِمِينَ. غيوم تتَلَبَّدَ فوقها وتخترقها سهامُ من نور الحُرِّيَة تتغذى عليها أغصانها

الغَضَّة. يضع يدهُ على بطنها فيشعر بحركة وتزداد كُلما ثبتت يدهُ، تواقٌ للخروج من عالمٍ مجهول إلى عالمٍ معلوم هويتهُ، لا شيء سوى الاتِّصَال الروحي بين مثلث الثورة هذا الذي ستذوب بداخلهِ عُفونة الحياة التي استشرت في داخلها وهي عَليلة تصارع من الإنسان الجبان، الضعيف الإرادة لا يُقدِم على المغامرة في الإبْحَارَ بل هو كَسيح جالس على البَرُّ يتطلع إلى ما وراء الأمواج والرياح العاتية التي ترهبهُ وتقيدهُ بالخوف. وضعت يدها على يدهِ فهدأت حركتهُ، تبسمت وهي تثني رأسها وحبيبها كذلك، لَمسَ جَبينها جَبينهُ والنظرات تُحدق بالبطن المتكورة. كُل شيء قِيلَ بهذا الصمت مع تخاطب الأرواح الشفافة التي تعانقت في رِحاب طفلٍ سيحمل دلوهُ ويَسْقِي النَبتة لكي تعانق هامَتها سَماء الحُرِّيَة وتَسْتَعبِدْ ذلك الوحش، تنظر لهُ من فوق وهو يتفسَّخ ويتحلَّلَ فتَقْضَمَهُ ديدان الأرض قضمه قضمه كما قضَمَ إرادة وشجاعة الإنسان. تكلم لِسان قدرهِ في قلب ذاتهِ: اليوم ثلاثة وغداً اثنان وبعد غد واحد صوتهُ في كُل واحد.

✵ 3 ✵

تعالت صَفَّارات سيارات الشرطة واِستَنفَرَت كُل الأَجهزة الأمنية في البحث عن الجَانِي، الكُل في توتر وغضب ما عدى المحقق صامتا لا يتحدث مع أحد ولا يعطي تعليماتَهُ في أي مكان ممكن البحث عنهُ أو أي شيء آخر، بدا مستسلماً من عيونهُ الخائبة وهي تقرأ ما كُتب فوق رأس السِّياسيّ التي أطفأت فيه روح التحدي بعد أن أعلنَ الواقفون حولهُ أن الصياد من انتصرَ في التحدي الأخير عليه. أُغلقت الطرق في وجههِ وبدت حياتهُ المهنية بائسة، فكُل النظرات حولهُ ممزوجة بالشفقة والأسى على ما حل بهِ من هزيمة نكراء، سلبه سلاحهِ ورتبتهِ فوق كتفهِ، لا يشعر بشيء سوى أنهُ عار أمام زملائهِ وغداً أمام أبناء المدينة. جاء المحافظ وثلّة من الطبقة السياسية المتنفذة إلى مسرح الجريمة. الدهشة على وجوههُم والخوف تملك قلوبهُم. تكلموا مع المحقق ، أن كيف الأمور قد وصلت إلى هذه المرحلة، ومن يجرؤ على قتل سِّياسيّ بارِز من حزبٍ حاكم. ردَّ عليهُم: قبلهُ كان القاضِي. صَمَتوا من هذا الجواب لكن اِنفِعال المحافظ جعلهُ يَلُومَ المحقق بعدم القَبض عليهِ وأن هذا القاتل المُجرم يجب أن يُعْدِمُ علناً في ميدان المدينة وأنهُ المسؤول أمامهُ في القَبض عليهِ خلال أيام. تنفس المحقق نفساً عميقاً قبل أن يُجيب بكلمات الحقيقة: لن نقبض عليهِ فهو يُحَقِّقْ رَغْبة الشعب. اِزْدَادَ غضب

المحافظ من قول المحقق وأَوداجهُ انتفخت ليقول لهُ: أنتَ معهُ أم معنا؟!. لا سُلطة غير سُلطتنا، نحنُ في المدينة وما هذا سوى قاتل مَخبول. نزَع المحقق مسدسهُ وهويتهُ التي تحملُ شارتهِ ووضعها في يَد المحافظ قائلاً لهُ: أنا مُستقِيل. صاعِقة نزَلَتْ على رؤوس المَوْجُودين أَصابتهُم بالخَرَس ولكن ردَّ عليه: لم أعرِفك رجلاً انهزامياً!. تبسمَ وهو يمشي نحوَ الباب ليخرج وكلماتهِ خرجت قبلهُ: لم يهزمني الباطِلَ يوماً بل الحقّ من هزمني اليوم. ترَك لغطهُم وراء ظهرهِ ومساعدهُ يتحدث معهُ بأن لا يَسْتَعجِلْ في اتِّخَاذِ قرارات قد يَنْدَمْ عليها لكنهُ تركهُ على رأس السُّلَّمُ، يَنْزِلْ من درجة إلى أخرى يبتعد عن وَكْر الكذِب والخداع هذا، فهُم لا يريدون أن يصدقوا أن الذي يقتل مثل هؤلاء، عَدَالةٌ لا يجَسَّر على تَنْفِيذُها من يحمل شارة العَدَالة بل يفعلها من يحمل شارة الشَّجاعَة و الزُّهْد في بريق وجه الدُنيا وبكُل ما يمنحهُ لك هؤلاء من حالة اجتماعيّة راقية وراتب محترم لكنك في النهاية تقفْ على جَبَل من الجَمَاجِمُ أكلوا لَحْمها ورَمَوْا عَظمها لك. يجب النُزُول من الأَبراج العاجية التي نصنعها بأيدينا إلى أرض الواقع حيث الحقِيقَة العَارِيَّة التي تصفعك على وجهك فيقف كِبْرياؤك بين ما تَعْتَزُّ بهِ نفسك وبين ما هو عِزَّةُ لنفسك. خَرَجَ من الفندق وهو يشعر بحُرِّيَة لم يشعر بها مُنذ أن كان شاباً في كُلِّيَّةِ الحُقوق يشترك في التَظَاهُرات ويتَمَرَّدَ على كُل ما هو عدو لمبدأ ما. نَزَعَ قُيودا من الحُلِيّ تزيَّنَ كتفهُ وخصرهُ وتمنحهُ قوةً يَسْتَعْرِض بها

على الفقراء تاركاً الغِيلان والحِيْتانَ تَبْتَلِع كُل ما هو جميلٌ وحقيقي. كانت لَه رغْبَةَ في القَبَض عليه والآن لهُ شوق للقائه. عندهُ يَقِين بدأ يتبلور أنهُ سيراهُ ويتكلم معهُ بعد أن اِنْخَرَطَ على الأقَلّ في وسط الحشود التي تخفي فرحها بِامتِعاض قَسَمات وجهها. تَعْدو فيه السيارة بين طُرُقَاتِ المدينة الجميلة البائسة، يَشُمُّ نَسِيم الحُرِّيَة من نَّافِذَة سيارته المفتوحة ويعجب بتَمَرَّدَهِ على هؤلاء الذين لا يهُمهم سوى أنفسهم وليَحْتَرِق بعدها الإنسان أينما كان. مسجونا كان باسمه ورتبتهِ وتحت سُّلطة مسدسهِ والآن حرٌ بتَمَرَّدَهِ على نفسهِ.

✵ 4 ✵

روح الثَـوْرِيِّ جامِحـة ويجـب لجَمَهـا، نـارٌ تَسـعَّر فيهـا تريـد أن تَحْرُقَ كُل شـيء فـي طريقها، فالـذي ليس لديهِ سـلطانٌ عليهـا تدفعهُ إلـى هَاوِيَة الـدم حيـثُ هُنـاك يَغْرَقُ مـع ثورتـهِ. ترتَطِـم أمواج نفسـهِ العالية بصخـور الحياة فتـدوي عاليـاً في روحـهِ، يخطو للـوراء باحثاً عـن السَّـكِينَةُ التـي منحها إليـهِ العجـوز وهو يأخـذهُ في يـومٍ عاصِف إلـى جَـوْف أحـد الكُهـوف التـي يجلـس فيهـا الآن ولا شـيء حولـهُ سـوى مَشـعَل نـارٍ رسـم ظلـه بجانبـهِ، تعتصـرهُ العَبْـرَةُ بخلـو مـكان العجـوز. لا وَحْشَـةُ فـي حضـرة عَبَـق ذكرياتـهِ وصوتـه كأنـهُ هَدِيـرُ النهر يَسْـقي بـهِ عطشـهُ الـذي لا يظمأ بعـدهُ. يسـمع كلماتـهِ في ذلك اليـوم بـأُذْن صاغِيـة وقلـبٍ مُتلهِّـف لحِكمَتـه: «هُنـا كان الإنسـان يختبـئ مـن الوُحـوش وعندما خـرج أصبـح وحشـاً كاسـراً». فرغت الكُهوف مـن سـاكنيها ومُلِئَـتْ البيـوت بالوُحـوش، كُل يقتـاتُ على أخيهِ. تحيـط بهِ رسـوم الإنسـان القديـم من غـزلان وثِيـران وخيول، بهـدوء وانسـياب الخطـوط الباهتـة يـؤرخ لنـا أشـكال الحيوانـات والإنسـان في زمنـهِ ولكـن طَـوَّرت الطَّبِيعَـةِ التـي نحَتـت الحيوانات من شـكل إلى آخـر وحتـى هُنـاك الإنسـان ذو الـرأس الكبيـر يُحملهُ ظهره المُحـدَودَب والأَذرع المتدلية. تغيرت الأَشـكال لكـن الجَوْهَرُ بقـى علـى حالـهِ فـي الحيـوان وفـي الإنسـان تطـوَّرَ بوحشـية العلـم وأَهْمَـلَ الإنسـانِيَّة التـي قـذف بهـا بيـن فكيـه. فـلا تأمـل وتفكـر في

الإنسان سوى المال الذي الهمهُم اِفتِراس الغير ليعلو فوق هامَتِهِ. ثُم ناداهُ صوتٌ من الماضي: «لا تختبئ من الوحوش في الكَهْف بل أختبئ لتحمي نفسك في الكَهْف. العُزْلَة في هذا الكَهْف هي الدواء الذي سيلجم روح الشر وهي الهام النفس بعيداً عن الضجيج. تتعلق بهُم ويتعلقون بك من خلف قِناعك، متى اَردتَ أن تكشف عن هذا القِناع لتشبّع رَغْبَةَ الغرور بما أنجزت، وأنت لا تدري بأن أضواءهُم ستُصيبك بالعمى أيُها الثَوْرِيُّ، لا تَنَزَّعَ قِناع الخَفَاء هذا بوجوهٍ أفواهها جائعة تَلْتَهِم كُل ثَوْرِيّ وترميه كَومَة من عِظام. بل فِرّ إلى كَهفك ودع ثَوْرتك تسعَّر في نفوسِهِم التي سوف تحمل على أيديهم بدلاً من يدٍ واحدة. أما قِناعك فهو الحاجِز بين اِنطِفاء شُعْلَة الثَّوْرَة بمقتلك وبين أن تبقى نارها مُسْتَعِرة أزلية في القلوب». سَكَنَتْ بَراكِين نفسهُ التي تغلي في قلب ذاتهِ ولجم تَمَرُّد نفسهُ الطامحة لتتوَّج رأسها بالغُرُور. خفَض صوت همس الشر فيه الذي يدفعهُ ليَخلَع قِناع الخفاء هذا لكي يستعرض عضلاتهِ أمام الناس. تلمس كَفَّهُ كُفوف أَسْلافها المرسومة على جُدْرَان الكَهْف، فهُنالك مناجاةٍ بين الإنسان القديم والإنسان الحديث، تسوقهُ كَفَّهُ لمَشاهِدُ الصَيد، يلمسها بكفهِ التي اِشْتاقَتْ لصَيد الحيوان بعد ما أصبحت تصطاد البشر. لَمسة من الماضي هدأت غضب الكَفّ الذي وصل إلى الجنون بعد أن سجن الشَّفَقَةُ وراء قُضْبان النفس الغاضِبة، حَرَّرَ شَّفَقَةِ في باحة الروح الصغيرة، فلا استعباد للغَضَب ولا استعباد للشَّفَقَةُ

فكِلاهما مرضٌ يجب وضع خطوط لهُما. احتمى في الكَهْف فحمى نفسهُ الطَمَاعَة الجَشِعة التي تُريد أن تقذف بهِ في قعَر الإنسانِيَّة المُفرِطة و تُمَرَّغهُ بوحِل الْجُبْنُ. فهو الآن كهذا الجَبَل ونفسهُ تحتمي بأحد كُهوفهِ من الإنسان وذواتهِ تنظر بعيون الشَّيْطان. خطى باتجاه فتحة الكَهْف المُضاءة بشعاع الشمس وقدماه تدُاعب الْحِجَارة، سَقطَ ضوء الشمس على عينيه، اِتَّسَعَتْا برؤيةِ دُّبٍّ أسود ينظُر إليهِ على أَعْتاب باب الكَهْف، مسكَ بندقيتهِ وباب الكَهْف وراءهُ ليدور ببُطء بعيداً عنها وهو يَضْرِبُ بيدهِ الأرض ويُثِير الغُبَار، ليَسْتَدِير الدُّبّ واقفاً أمام باب الكَهْف والصياد أمامهُ. رفعَ يديهِ واقفا على رجليهِ، غاضباً، ثُم سَهَفَ الدُّبُّ سَهِيفاً، ينثرُ لعابهُ، يَسيل على فكهِ وأنيابهِ تَكَشُّرُ بوجه من كان في بيتهِ. فيما بينهُم معركةً وشِيكة تُريد أن تبدأ لكنهُ علق بندقيتهُ على كتفهِ ليُطمئنهُ بأن لا عَداوة بيني وبينك، فَهِمَ الدُّبّ الرسالة وأنزلَ يديهِ ذات المَخالِب الحادة وهو يَزْفُرُ ويَلْهَثْ من شِدَّةُ الغضب. خَفَّتْ طُبول المعركة وبَقُوا واقفين على مَسافَة فيما بينهم، وفي أَثير المسافة بينهُم خرجت كلمات الصياد:

«سَكَنَتْ الوُحوش الكُهوف وتشردت النفوس بلا كُهوف»

الْمُرَابِـــــي

✵ 1 ✵

حيـن تتحقـق العَدَالـة فـي بيتها فَـذَاكَ هـو الهـدف الأسـمى، من خلالـه يبـدأ تطهير الإنسـان، هـي كلمـةٌ ثقيلـة يحملهـا أبنـاء القانون فـي قلـب ضميرهُـم، فهـي ليسـت رُتبـا ترهـب الآخـر ولا مسدسـا يطلـق الرصاص بـلا هـدفٍ، ولا حتى سـجنا يُزج بـه الجانـي بل هي الحقيقـةُ المجـردة التـي تحتضـن الضميـر وتحميهِ مـن نفسـهِ التَوَّاقة إلـى السُّـلطة التـي تتسـلط علـى رقـاب النـاس بـلا وعـي فـي كلمـة العَدَالـة. نفـذَ شـعاع العَدَالـة إلـى بيـت الحـق وسـقط علـى رأس المحقـق الذي صهـر كُل مـا جرى وفهـم أن الـذي يقْتَصَّ مـن هؤلاء ليـس بمجرم بـل هـو العَدَالـة بوجههـا الحقيقي، بُـكلُ مـا تحملهُ من إرادةٍ حديديـة تحطـم كُل مـا هـو صنـمٌ بائـس يـدورون حولـهُ لكـن لا أحـد يجرؤ علـى ضرب رأسـهِ الأَجـوف الملـيء بالعفـن، وعندما جـاء وضـرب مـن وراء السـتار ذاك الـرأس صُـدِم النـاس بفرحـةٍ يختلجهـا الخـوف مـن حُمـاة القانـون لهـذا الصَّنَـم الـذي أحاطـوهُ بسـياراتهُم وأسـلحتهُم وتحقيقاتهُـم التـي نبَشـت المدينـة بحثـاً عـن الجانـي. كُـم هُـم أغبيـاء، الجانـي مُهشَّـم الـرأس خلفهُـم يحمـوهُ والفـارّ هـو العَدَالـة التي تحققـت على يديـهِ. يَسِـيلَ الدم الفاسـد من رأس مُتحجـر والطفيليـات تزحـف علـى كتفـهِ هربـاً إلـى صنـمٍ آخر ورائحـة العفـن تتقـزز منهـا الـروح، مـاذا فعلـوا؟. شـموها وتقززوا وفرحوا أن مـا كانـوا يظنونهُ بـهِ أصبـح حقيقةً لا غُبـار عليهـا وأكتفوا

بالهمس فيما بينهُم الذي سيزداد كُلما سقطت قطعةٌ من حجارته. أما رجال القانون فلم يلتَفِتوا ليروا عن ماذا هُم يُدافعون، إلا واحد قد أزاحَ عن ضميرهِ يد السُّلطة الواهية وتجرد من صفتهِ كمحقق، شاهدَ ما الذي يدافع عنهُ، تمثالٌ من حجارةٍ صماء يسكنها الدم الفاسد والطفيليات، تاركين إياهُ يستولي على قلوب الضُعفاء ويستهوي الجَهلة ويصمت الباقون خوفاً ممن يحميه بسُّلطة قانون المدينة. هُنا حُققت العَدَالة في بيتها بانتفاضة واحدٍ من كثيرين يحموهُ لحد الساعة. تَحَرَّرَ من هويتهُ الزائفة ومشى في طّرِيق الإنسان المجرد من كُل ما يثقُل ضميرهُ بالخنوع والخضوع. ففي صرختهِ في بيتهِ وهو يلقي بالمُسدس والرُتبة والهوية دويٌ في نفوس رفقائهِ الذين ما زالت يد السُّلطة المُغرية تستولي عليهِم ولكن الأهمَّ أن القلق تَسَرَّبَ في عروقهُم والحقيقة تلبسهم يوم بعد يوم وسيأتي يوم أفواههُم تفتح بوجهِ الحقيقة الزائفة لقتلها كما يطلق المسدس طلقتهُ لقتل مجرم ما. رمى الجريدة من يدهِ على جنب المَصْطَبة الجالس عليها وشمس السَماء تمنحهُ الشعور بالسَّكِينَةُ والطَّمَأْنينةُ كما منحهُ خبر اِستِقالة المحقق أملاً جديداً في بيت العَدَالة المتهالك. هكذا هو مُنتشي بالنصر على ذلك الصَّنَم حتى ولو كان واحد قد تَمَرَّدَ على حراستهِ. تغيرت ملامحهُ حينما لَمح امرأةٍ قد عبرت الشارع وهي تبكي لتجلس على المصطبة التي بجوارهِ. دموعها اِستَفَزَّتهُ وحركت فيهِ فُضول السؤال عما تعانيهِ وبحدسٍ ما اِسْتقرأ أن

صوت المِطرَقَةُ سوف يُسمع الآن. نهضَ واقفٌ أمامها:

– ما الذي يبكيكِ؟.

رفعت رأسها وظِلّ قبعته حَجب نصف وجههِ وهي تجيب مستغربة:

–وما شأنُك أنتَ؟!.

– أريد المساعدة.

– لا أحتاج لأحد، اتركني.

– لن اتركِ حتى أعرف لماذا تبكين؟.

– إنكَ عَنِيد.

– اعتبريه فُضولا أو عِنادا أو تطفلا... أرجوكِ.

مسحت دموعها وعيناها تنظران في الفراغ وقالت بصوت مخنوق بالعَبْرَةُ:

– أَخَذَ مني الْمُرَابِي بيتي بعد أن اِقترضتَ منهُ المال الذي تضاعف إلى أضعاف خلال سنة.

– ولأي شيء اِقترضتِ المال؟!.

– تسأل كثيراً ولكن لا فائدة كُل شيء ضَاعَ.

– إذا كان كُل شيء ضَاعَ لم تخسري شيئا إن أجبتني على سؤالي الأخير.

– أنا أرملة، كنت أعمل في شركة في قسم الأرشيف، لي طفلتان في المدرسة، أبوهما متوفي، كثُرت مصاريفنا وراتبي لا يسُد اِحتياجاتنا حتى ثقلت ديوني بمرور الأشهر. نصحني أحدهُم أن اقترض المال من الْمُرَابِي بضمان بيتي الذي ورثتهُ عن أُمي. أخذت القسط بعد الآخر لأُسَدِّدَ ديوني وفي نفس الوقت الْمُرَابِي يُضاعف المال الذي بدأ ينفد مني بعد أن اسْتَغْنَت الشركة عن خدماتي قبل ستة أشهر. فلا دين لي سوى دين الْمُرَابِي ولا عمل لي سوى عمل بسيط ببار راتبهُ يَسُدْ رمقي أنا و ابْنَتِي. توسلت إليه أن يَصْبِر عليَ وأن لا يأخذ بيتي. طرَدني قائلاً لي: بيتُك يَسُدْ ما عليكِ من دين وعليكِ أن تُخليه خلال أُسْبوع.

– وأين مكتبهُ؟.

– في الشارع المقابل، المكتب ذات الواجهة الزجاجية هُناك حيثُ هو الآن وحدهُ يجلس وراء مكتبهِ ويُدخن بنَشْوَة حصولهِ على بيتي.

نظر إليهِ من بعيد بعيني وقلبِ صيادٍ جائع، قائلاً لها:

– لا تقلقي لن يأخُذ البيت منكِ ولا من سواكِ شيئا آخر بعد اليوم.

تفاجأت لثقتهِ بنفسهِ وهي تسألهُ بعد أن أَدارَ ظهرهُ لها:

– ولكن كيف؟.

لم يُدر وجههُ لها لكن كلماتهِ تلقفتها أُذناها من خلف ظهرهِ:

- بطريقتي الخاصة.

- أنتظر.. أنتظر إلى أين؟.

أمرَها بصوتهِ الجَهْوَرِيِّ الذي اِلتَفَّ من فمهِ إليها:

- بل أنتِ من عليكِ أن تنتظري.

ظلَّتْ صامتة والدَهْشَة على وجهها وهي تراقبهُ يعبُر الشارع ليدخل إلى المكتب حيثُ الْمُرَابِي هُناك.

✵ 2 ✵

باب المكتب يفتح و يغلق بسُرعة، شدّ انتباهَهُ وهو يتكلم في الهاتف، يخفي الواجهة الزجاجية التي تطُل على الشارع بستارةٍ حمراء عكست دمويتها على الْمُرَابِي ليغلق الهاتف والخوف مع الرِّيبةُ تتسلل لهُ ولسانهِ المعسول قد مزج بالخوف ناطقاً: أيمكنني مساعدتك؟!. لم يرُد عليهِ، اِلتَفَّ من وراء مكتبهِ الفخم ورمى قُطعَ نَقديّة أمامهُ. نهضَ من كُرْسِيِّه لكن الصياد أجلسهُ بقوة ذراعه الضاغطة على كتفه النحيل وهو يسألهُ بخوف:

– ما الذي يحدث؟!. ولماذا أغلقت الستائر ورميت قُطع النقود أمامي؟!. وضع يديه على طاولة المكتب ليَشم نتانة أنفاسهِ التي زفرها بكلماتٍ في وجههِ: أعطني سَّنَدُ بيت المرأة التي خرجت قبل قليل من هُنا.

قال وهو مُضطَرِب:

– عن أي امرأة تتحدث؟.

صرخ بوجههِ:

– أعطني السَّنَدُ وإلا ... (شهرَ مسدسهِ بوجههِ).

فَتشَ في الأدراج وجسدهُ يرتجف وعيناهُ تقرأ بسرعة، سحبَ الورقة بيده المرتجِفة وأعطاها لهُ. تأكد فقط أنهُ سَّنَدُ بيت، أما اسمها فلم يعرفهُ لكنهُ عرف وجهها من نسخة مصورة لهويتها.

وضع الـورق في جيبـه ورفـع مسدسـهُ الـذي أرعـب الْمُرَابِـي في ما بين عينيهِ مرةً أخرى، توسعت لهُ حدقتا عينيه خوفاً وشفتاهُ تُتمتم:

- لا تقتلني، خُذ كُل شيء واتركني أعيش.

وجه المسدس إلى رأسهِ، آمراً إياهُ:

- اِبتلِع هذه القطع النَقديّة كُلها وسأتركك.

- وكيف هذا؟! أنها ستقتلني.

- اِبتلِعها وإلا أَفرغت هذا المسدس في رأسك.

امسـكَ بالقطعـة النَقديّـة ويـدهُ ترتجـف، يقربهـا ببطـيء مـن فمـهُ واضعـاً إياها فيـه، محـاولاً ابتلاعهـا لكنها حشـرت بمنتصـف بلعومهِ الـذي أطلـق صوتـاً خشـناً متقطعـا كأنـهُ شَـخير. بـادرهُ الصيـاد بكفّيه وهو يضغط علـى القطعـة المعدنيـة العالقـة فـي بلعومهِ وضغـط أكثر علـى رقبتـهِ ليهتـزَ علـى كرسـيهِ كأن تيـارا كهربائيـا يَسـري فـي بدنـهِ وسـواد عينيـهِ يختفـي تحـت جفنيـهِ. شَـخر بضـع شَـخراتٍ متقطعـة ليسـلم روحهُ إلـى الجحيم. ثبتَ جسـدهُ على الكرسـي بـرأسٍ مرفوع وفتـح عينيـهِ، اِسْـتَلَّ سِّـكِّينهَ وشـق بؤبـؤ عينـهُ اليسـرى كمـا اليمنـى وثبت فـي كُلٍ منهمـا قطعةٌ نقـود معدنيـة، يَسِـيلَ على خديـهِ خيط من دم وكأنـهُ يبكـي مـن تُخمـة المـال. تلطخـت كفّـاهُ بدمـهِ ورسـمت سبابتهِ كلماتٍ من دم يهمسها هو بأُذن ضمير العَدَالة المريض:

«الربا خنقهُ وفقأ عينيهِ»

سحب مناديلا من العلبة الواقفة على أقدامها الأربعة المدببة المعدنية القصيرة على طاولة المكتب، ماسحاً كفيهِ من دمهِ النجس. خرج وهو يعبر الشارع حيثُ هُناك المرأة جالسة تنظر أليهِ وينظر لها مبتسماً وهي تستغرب من ابتسامتهِ هذه. مدَ لها سند بيتها لتتلقفهُ بحماس وهي تردد نظراتها بين الصياد والورقة لتقول:

- شكرا لك ولكن كيف اقنعتهُ بأن يعطيك سند بيتي؟!.

- بطريقتي الخاصة.

- عن أي طريقة تتحدث؟.

- في المساء ستعرفين.

هم بالرحيل لكنها امسكت يدهُ واقفة والشك يحوم فوق رأسها لتسأل:

- هل أنتَ؟!.

- نعم أنا.

خافت وتراجعت إلى مقعدها جالسة وتعابير وجهها اصطبغت بصفرةٍ وهو يُطمئنها:

- لا تخافي مني.

- المدينة كُلها تتحدثُ عنك!.

- وماذا تقول المدينة عني؟.

– شعباً تؤيدك وحكومةً تريدكُ مشنوقاً، حتى أنهم رصدوا مكافأة مادية كبيرة لمن يدلُهم على مكانكَ.

– وهل ستبلغين عني؟! (قالها وهو يبتسم).

– أبلغتهُم عن هذا المرابي لكنهُم قالوا لي أن عملهُ قانوني ولم يُجبركِ على شيء، ولكنكَ قد أتيت إلي بثقة وسألتني وحللت مشكلتي خلال دقائق. كيف أُبلغ عنك وهُم العدالة بزيها وأنتَ بجوهرها.

– لا تنسي شيئاً مهماً وهو أن لا تسمعي كلام الناس في حل مشاكلكِ، فحين رموك بأحضان هذا المرابي لم يسمعك أحد وحتى بباقي المشكلات، هُم يثرثرون كثيراً ولا يفعلون شيئاً سوى التفرج والضحك على الآخر. ثُم حرر يدهُ من قبضة كفها، يودعها بكلمة :

– وداعاً.

– ولم الوداع؟.

– دمعتُكِ من حفزت عاطفتي لتسقط قناع الخفاء هذا.

– والى متى سيبقى هذا القناع؟.

– لا تتولعي بالجسد وتولعي بما يفعلهُ صاحب الجسد.

– إذن لا وداع.

- أكيد. فما بين الثوري والشعب وداعٌ بالأجساد، لتبقى الأفعال حية أزلية في النفوس.

مشى بضع خطوات ونادتهُ:

- أنت حكيمٌ جسور.

- بل أنا الإنسان عندما يسير بطريق الحكمة ويمزجها بطرق الحياة الأخرى.

ظلَ يمشي والمسافة تطول بضرب قدميهِ للأرض.

- ما أسمكَ؟.

وقف لافاً رأسهُ وعينٌ تحدق بها وكلمةٌ القاها عليها:
- أسمي ملكٌ لي وأسمكِ مُلكٌ لكِ وما بين الاثنين يموت الفضول.

خفق قلبها وتولعت روحها بهِ وهي تراهُ يختفى بين الأطفال والنساء والرجال، فهو واحدٌ من الناس ولكنهُ لكُل الناس بشعلة ضياء ثورتهِ التي تسعر في قلوبهِم. جلست ووضعت سند بيتها في حقيبتها وأرادت أن تذهب إلى مكتب المرابي لتعرف ماذا فعل بهِ؟ لكنها نأت بنفسها بعيداً فليس قلبها كقلب الصياد. وقع أقدامها على الأرض لم تسمعهُ بل تسمع صوتهُ يتردد فيها وينصهر في داخلها فيخرجُ كلماتٍ من فمها:

«لمستُ اليوم عدالة السَماء وهي تتجلى بشخصهِ»

✵ 3 ✵

صدمةٌ كبيرة هَزَّتْ كيانهِ بمقتل المحقق في الأمس، يتابهُ شعورٌ بالذَنب وكيف لا وهو السبب في مقتلهِ، هكذا يُردد في نفسهِ لكن لكُل ثورةٌ هُناك دمٌ يَسِيلَ ليرويها. كُلما اِنتَزَعَ الانتقام من قلبهِ رجع إليهِ يزورهُ بقوة وكأنهُ شَبحٌ لا يموت. لن يحزن طويلاً عليهِ حتى يأخُذ بثأرهِ. شكوكهُ تحوم حول ابن السياسي الذي قتل أباهُ ومدير شرطة المدينة والإثنان صعب الوصول لهُما. يجب أن يستجوب أحدٍ ما كان قريبا منهُ وهذا سيكون مساعدهُ الذي يشاهد صورهُ دائماً في الجَرَائِد مع المحقق. رَكَب دَرّاجتهُ واِنطلق بسرعة وصولاً إلى مركز الشرطة حيثُ هُناك يجب أن ينتظرهُ. طَوَى المسافة بدقائق كالبرق لا يهمهُ سوى شيءٍ واحد هو أن يمسك بمساعدهِ. فمفتاح قُفْلُ هذه القضية تحت لسانهِ لا يقدر أن يبتلِعهُ ولا أن يخرجهُ، خوفاً من أن يقتلوهُ هو أيضاً. إن التمردَ الذي حصل من المحقق في وسط حَشد الشرطة و المحافظ وأهل السياسي كان خطراً عليهُم جميعاً. اعتبروه النار التي ستحرق كُل شيء وتحولهُم إلى رماد لذلك أَطلقوا عليهِ طَلقة قَنّاص من بعيد وهو في قلب بيتهِ حيثُ زوجتهِ وأطفالهِ. ثُم بعد ذلك اتَّهَمُوا الصياد بهِ لكن الناس لم تُصدق والشرطة نفسها تعرف لكنها لا تستطيع أن تتحدث فهُم عبِيد للسُّلطة المَمنوحة لهُم من غِيلان الشر وهي تُحرك الأمور كالدمى. وصل إلى مركز

الشـرطة وبقـى علـى الطـرف الآخـر مـن الشـارع يتفحـص كُل مـن يخـرج ويدخـل ومـا هـي إلا بضـع سـاعات حتـى خـرج مسـاعد المحقـق المَغْدور مـن المركـز متوجهـاً إلى سـيارتهِ التـي سَـارَتْ بهِ فـي وسـط المدينـة لا يـدري أن هُنـاك مـن يتبعـهُ كفَهـدٍ يعـدو وراء فريسـتهِ. وصـل إلـى بيتـهِ، أَطْفَـأَ السـيارة وفتـح بابهـا، ليـرى فُوَّهـة مسـدسٍ تخرجُ مـن الظـلام تحدق فيـهِ، رفـع يديـهِ والصياد يقـول لهُ بصوتٍ نابعٍ من قلب الغضب:

– من قتلَ المحقق؟.

اِرْتَبَكَ المساعد لتخرج كلمة بشق الأنفُس:

– لا أدري.

ثُم نظر من فوق فُوَّهة المسدس ولسانهُ المُتلعثم يُجِيب:

– هل أنتَ؟!.

لَكَمَهُ على وجههِ ليقول بعدها كابتاً غضبهِ:

– نعم.. أنا هو.

لكن لن أُكرر سؤالي مرة أُخرى:

– من قتلَ المحقق؟.

أفصحت عيناهُ عن الخوف بالبَوح لكنهُ نَطَقَ:

– سـأقول لك... بعـد أن اِسـتَقالَ أمام أهـل السياسـي والمحافظ وقال «لـم يهزمنـي الباطِل يومـاً بل الحـقّ مـن هزمني اليـوم» غضبوا

منـهُ وأنـا تبعتـهُ لكنـهُ لم يـرُد علـيَ، وبعـد أن رجعـت توقفـت خلف البـاب وأنا اسـمع ابـن السياسـي يقـول لأحدهُم: سـيدفع ثمـن هذا. اِتصلت بهِ وحذرتهُ لكنهُ لم يُبال. أرجوك لا تقتلني.

– إذا سـمعتُك قد تحدثت عـن هذا اللقاء سـأقطع رأسـك. والآن أعطني مسدسكَ.

أفـرغَ مسدسـهُ من الرصـاص ووضـع الرصـاص فـي جَيْبُـه، رماهُ بوجههِ قائلاً لهُ بغضبٍ:

– وهـو كذلك سـيدفع الثمن، سـأدفنهُ قبـل المحقق لكـن قُل لي: هل سيحضر الجنازة ابن السياسي؟.

– نعم.. هو والحَاشِية كُلها.

اِنطلـق بدَرّاجتـهِ والمسـاعد يجهـش بالبـكاء مـن جبنـهِ الـذي اسـتولى عليـهِ وخوفهِ علـى عائلتـه. ينعطـف بالدرّاجـة يميناً ويسـاراً بطـرق المدينـة الملتويـة والمُنتَقِم فَـرحٌ بداخلـهِ ومتعطشٌ لـدمِ قُربانٍ فاسـد. لن يكبِتـهُ غـداً فـي مَقبَـرة المدينة حيـثُ ستشـهد مقتـلَ روحٍ عفنة في رِحابها قبل أن يُدفن المحقق وتتعالى أَصْوات الفراق.

✵ 4 ✵

بعد مشواره الذي كشف عن حقيقة من قتل المُحقق بقى جالساً خارج الكوخ وحبيبتهُ معهُ تنظُر إلى ضوء القمر المخضب بالحمرة. قتل فضولها بعد أن سألتهُ ما الذي يُحزنك؟. حين أخبرها، هي بدورها حزنت لقتل ذلك الضمير الحيَ في وسط الضمائر الميته حتى تركتهُ وتركت نفسها تحت ضوء القمر يتأملون مصيرهُم خلف ظلمة الأقدار التي يشمون فيها رائحة الفراق لا البقاء، لكن حينما شعر بثقلُ وجعها على الذي قُتل والذي سوف يأخذ بالقصاص، من غير هاجس الخوف بما سيحلُ بجنينهم. نهض ومدَ يدهُ لها ثُم قال لها: تمشي معي إلى ما وراء الغابة حيث قبر العجوز بين تلك القمتين. ساقتهُم أقدامهُم في قلب الغابة الموحشة لها وهي تشدُ على كفهِ، فبين فحيح الأفاعي وخطف الأشباح حبست أنفاسها لكن بنظرة مع ابتسامة هدأ من نبضات قلبها الخائف. طريقٌ طويل تحت هالة القمر الدامي الليلة وكأنهُ حزينٌ على ما حلَ بذاك الصوت الشاذ بالحق كما يسمعوهُ رفاق الشيطان. خرجوا من الغابة إلى واد، عتمة الظلام أخفت اخضراره لكن غابة الطبيعة أرحم من غابة المدينة. هكذا حدثت نفسها، وأقدمت بلا تردد بل بفرح غامر وهي تشعر بقدميها فوق الأرض وروحها تُلحق في سماء صمت الحُرِّيَة هذا. تمهلوا حين وصلوا لقطيع فيلة نائم فهُم العائلة التي لا زالت تتراصف في السراء والضراء بين فكي الغابة التي تلتمع

من خلال ظلامها عيون الفهود الصفراء الساهرة، خرجوا هُم عن قطيعهُم ولا زالوا شبابا، يُعانون من وحدة لكن فيها النجاة ليسوا كالفيل حين يهرم فيُترك وحيداً يفترسهُ الموت، فهو ذاك الذي يُساير الأقدار أما هُم فقد مشوا عكس ذلك يعيشون الوحدة في ذروة الشباب كي تكون سعادة حين يلتقون بالموت. بعد مسيرٍ أشعرها بالتعب وزادَ عندهُ الشوق لرؤية قبرٍ يرمي على حجارتهِ الصماء كُل هم، وقفوا بإجلال بلا كلام كي تتخاطب روح العجوز مع الروح التي تُجاهد لكي تبقى صامدة بوجه المتاعب والمصاعب حتى قرأت القديسة ما نُقش على قبرهِ بصوتٍ مسموع: «ولدتُ فيها عبداً ورحلتُ عنها حُراً». لم يُعلق الصياد بل نظر لها بعينين أحمرتا من حبس الدموع فقالت لهُ: أبك كي تُريح روحك. شهق عبق الذكريات وزفر الكلمات: أيام الفراق شربت دموعي وتركت لي دموع قلبي. لفت انتباهها أنهُ يُحدق بالظلام حتى رأت اثنين يحمل أحدهما مشعلًا، أمسكت بذراعهِ بعد أن اختبأت وراء ظهرهِ ونصف وجهها ينظر بعينٍ واحدة يُرحب بهُم ويعلو صوتهُ بوجه الظلام الموحش في عالمٍ مظلم لا يبصُر فيه إلا ذو بصيرة وحِكمَةٍ متجذرة في روحهِ وهو ينادي بلغةٍ لم تفهمها القديسة. يقذفُ بالكلمات وكأنهُ يُبَجَّل موكب مَلِكٍ قادم. الصمت في كبد الليل البهيم ينسلخ من باطنهِ شبحٍ أسودَ عيناهُ تلمعان وملامحهُ كأنهُ محاربٍ مهيب تغضن وجههُ من كُثرة تحديقه بوجوهِ الموتى. تبعتهُ امرأة طويله على يمينهِ ضفائرها كالأفاعي. ووجهها موشمٌ بخطوط سوداء على خديها تتقاطع

أسفل ذقنها وعلى جبهتها رسم بحروفٌ غريبة. لم تُصدق ما ترى حتى تحدث الجد الغجري: أهلاً بالصياد. حنى رأسهُ تبجيلاً لهُ ولزوجتهِ قائِلاً لهُم:

- أهلا بالأصدقاء الرحل.

احتضنه بقوة وبكى على كتفه ومن بعدها قَبلَ يد الجد والجدة الغجرية، وسألهُم:

- متى وصلتم؟، رَدَّ عليه الجد:

- وصلنا قبل عدة أيام، نأتي إلى هُنا بلا ميعاد فنجد أنك في خطر أيها الصياد.

- هذا حال الثوري يا جدي الغجري.

- عليك بالرحيل معنا.

- القتل أهون عليَّ من الهروب.

- اعتبرها استراحة محارب.

- من المُحتمل أن يصطادني أحدهُم قبل أن أكمل مهمتي.

- أرى الإصرار فيك لا العِناد وهذا ما يطمئنني عليك.

تسمرت القديسة ورائهُ لا تعرف ماذا تقول، تركاها الغجريان كأنها غير موجودة بعد أن عرفها الصياد عليهما، ثُم انحنى الجد على القبر وهو يُتمتم بكلمات تُخاطب روحهُ: لم تترُكنا كي نشتاقُ لكَ فهذا رفيقكُ مرآةٌ لكَ. تفرست الزوجة بالفتاة فعرفت

ما بها من حمل فاستغلت انحناء زوجها على القبر كي تُحذر الصياد وهي تهمُس بشفتيها في أُذنهِ محجوبٌ صوتها عن القديسة لتقول: «الحبيبة المُختبئة وراءك تحملُ بذرة صيادٍ رحال لغير زمان، فلن يكبُر في عالمِكما بل في عالمِنا ليرى الحياة في مرآيا أُخرى، ما أن يكبُر سيختار بين طريقك الذي سلكتهُ أو طريقنا، بيتنا مفتوحٍ لكُم وأذانُنا تسترق سمع الأخبار فلا تقلق حين يحين الميعاد سنكون بجوارك». بعد أن شكرها شعر بغصةٍ مُرة لكن عزاءهُ أن لا يعيش بعدهُم الطفل في شتات. نهضَ الجد يقول لهُ أنهُم باقين لأسابيع أخرى قرب قبر العجوز من الناحية الأخرى للجبل واذا احتجت لشيء فنادي علينا برصاصة من بندقيتكَ. ابتلعتهُم ظلمة الليل، التعجُب أصابها ولسانها لم يكل من الأعجاب بالغجر وأن كيف تمثلوا حقيقةً أمامها فهي لا تُصدق ما حصل. عرفت هؤلاء من معارف العجوز من على لسانِ حبيبها الذي يحبوه الغجر كأنهُ واحدٌ منهُم، فقد عاش معهُم فترة طويلة بالترحال بين المُدن كي يرى الحياة من منظارهُم الملون بألوان خيرها وشرها، يأتون بين فترةٍ وأخرى يزوروهما، وأنَ لا خوف منهُم بل الخوف هُناك من رجال سُلطة المدينة. لم يُبلغها بما قيل لهُ من قراءة لمستقبلٍ ليس ببعيد عن تمثلهِ أمامهُم لكي لا يُمحي تلك البسمةُ الملائكية من على ثغرها، بلع الألم وأرتشف الصبر حتى أسكتها بقبلةٍ طويلة شرب منها عسل الحُب المُتدفق ليزيح علقم طعم التنبؤات، مُغمض عينيهِ عن هالة القمر الدموي لباحةٍ من الحُب تشعُ بضوء قمرها الأبيض الوهاج.

✵ 5 ✵

كُلما يبتعد الإنسان عن دارهِ الأخِيرة تسوقهُ قدماهُ طوعاً لها، يحيط بهِ الأَمْوات من كُل جانب ويضحك القدر على خوفهِ من مصيرٍ محتوم يتستر من ورائهُ خائفاً لا ينطقهُ في حضرة الأَمْوات. إنسانٌ يذرف الدمع على إنسان مَيت ولا يدري أن دموعهُ تمزج الفراق بالخوف من أن يلحق بهِ. يمسحُ بصرهُ القبور وهي ثابتة متجذرة في جوف الأرض، كُلها سواسية هُنا، فهذه هي أرض العَدَالة التي يتساوى فيها الإنسان ويبقى ينتظر في جوف قبرهِ أي قدرٍ رسمهُ لهُ العالم الآخر بما خطتهُ يداهُ بهذا العالم. سَطْوة الأَرواح تثقلُ كاهلهُ كما زارها آخِر مرةً في رفقة العجوز الذي قال لهُ: « ندخُلها خَائِفِينَ ونخرج منها ضاحِكِينَ» وها هو خائفٌ الآن ولكنهُ لن يخرج ضاحِكاً منها بل هاتفاً بالنصر. يقف وينظر أي مكانٍ سيدفن فيهِ المحقق، التفت هُناك حيثُ الدَفّان يحفر القبر وحدهُ في قلب الصمت وأرواح الموتى تُحدق فيهِ لكن الخوف غادرهُ بملامسة عشرات الموتى، فهو الكريم الشرِه عندما يُكرم الإنسان بإرجاعه الى أُمهِ بعد أن غادرها لسنواتٍ طوال. يُفتش عن مكانٍ بعيد يتوارى فيهِ عن الأنظار، وجدهُ بين الأَشجار التي تواجه الدَفّان الذي يحفر قبر المحقق بفرح وكأنهُ ينبش بحثاً عن كنزٍ ما. بطيئةٌ هي خطواتهِ بين القبور، فأنينُ امرأةٍ تبكي هُناك على قبرٍ تحتضنهُ وتحول الأنين إلى صراخ بعدما يآسة من

صمت القبر. تَذَكَّرَ كلام العجوز في ذلك اليوم ليُخاطب من بعيد من يحتضن القبر ويصرخ: «اصرخ بوجه القدر والقدر غداً سيزعق بوجهك كما صاح بوجهِ صاحب القبر، ثُم اسكب الدمعة على القبر فهي تُطفئ شوق الميت وتحرر حسرة قلبكَ، فما نحنُ إلا بشرٌ تسوقنا الأَيام إلى طريقٍ موحشٍ ونحنُ نضحكُ لا ندري أننا كُنا نسير مُنذُ ولدنا بطريق الموت هذا، انهضْ و اتْرُكْ الأَمْوات تتهامس فيما بينها وارحلْ إلى هُناك واَضحك بعدها، عسى أن يُنسيك صَخَب المدينة العاهرة صوت بُكائك ويمسحُ دَمعَة لوعتك وقبل أن تخرُج قبَل يَد الدَفّان فهي التي تلمسُ جسدك لَمسة الوداع الأخيرة». نظرَ إلى السَماء الرمادية تتجمع وتَبْرُقَ فيَ عينيهِ وقصف الرَّعْدُ يتعالى في جنبات المقبرة، خفت خطواتهُ وبدأَ ينسَلَّ بين القبور إلى هُناك بين الأَشجار والدَفّان ما زال يحفُر القبر ولكن في طريقهِ رأى سواداً يرتفع وينخفض خلف قبر، اِنْسَلَّ من وراء هذا السواد، مختبئاً خلفَ قبرٍ أمامهُ، ينظر إلى امرأةٍ عجوز مَسخَ الزمن ملامحها وهي تأخُذُ عظاما من هيكل عظمي كانت في ما مضى جثة تغذى عليها الدود وحولها إلى عظامٍ تُنْخَرُ بين فكي الزمن، تُقلب وتضع ما تختارهُ في كيس. صرخ بها: ما الذي تفعليهِ أيتها المَلْعونة. قفزت القبر المَنْبوش وهي تُكشر عن فمٍ لم يبقَ فيهِ سوى نابين أصفرين وهي تقول: وما شأنُك أنتَ!؟. صوبَ بُنْدُقِيَّتِهِ بوجهها وهو يُهددها: قولي لي وإلا سأدفُنكِ هُنا؟. خَافَتْ وهي مفزوعة تتفل الكلمات: هذه

العظـام سـأطحنها وأعمـل فيهـا سـحراً لمـرء يُريـد أن يتقـرب مـن امـرئٍ آخـر. قَطَّـبَ جَبِينَـهُ وتعرفـت ذاكرتـهُ عليهـا ليقـول: أنـتِ المُشـعوذة. رَدَّت وهـي ترتعد: نعـم أنا هي. ومـن أنـتَ؟!. صارحها قائلاً: الصيـاد قاتل الفاسـدين والمشـعوذين.... لم يسـتطع أن يُكمل بعـد مـا سـمع أبـواق موكِـب جنـازة المحقـق فالتَفَتَ بسـرعة ليـراهُ ينعطف هُنـاك حيـثُ قبـرهِ. أَنْـزَلَ بُنْدُقِيَّتِهِ متوعـداً إياها: سـأَزورَكِ في يومٍ قريـب. تركهـا مُسـرعاً إلى مـا بين الأَشـجار حيـثُ هُنـاك وصل بسـرعة لكي لا يـراهُ أحـدٌ. اِنبَطَحَ وهـو يتخفى بين سِـيقَان الأَشـجار الشـامخة وعينـاهُ تلمـح المُشـعوذة وهـي تقفـز مسـرعة إلـى خـارج المقبـرة. وقفـت السـيارات بأنواعهـا منهـا المَدَنِيَّـة التي تحمـلُ أهل المحقق وسـيارات الشـرطة، أنزلـوا التابُـوت ووضعـوهُ على الأرض ورجال الشـرطة والبدلات السـوداء مـن حرس المحافـظ والأَصدقاء وأهلـه يُحيطـون بـهِ، أمـا زوجتـهِ وطفـلاه يبكـون علـى التابُـوت، ووصـل ابـن السياسـي وهـو يُصَافِـحُ المحافـظ وأهـل المقتـول بحرارة، ليقـف جنـب المحافظ. لقَّـم بندقيتـهِ برصاصة الثـأر ووضع سـبابته علـى الزِنـاد وعينـهُ تَقَنُّـص أبـن السياسـي، زفَـر قلبـهُ غضبـاً واختـرق شـعاعٌ مـن شـمس الظهيـرة غيـوم السَـماء الرمادية سـاقطاً علـى جبينـهُ، شـاهدَ القاتل يُعـزي بالـذي قتلـهُ فاِسـتَفَزَّ إصبَعـهُ الذي لاَنَ تحـت الزِنـاد وأُطلقـت الرصاصـة نحـو رأسـهِ بعـد أن أَيقَـظَ صوتهـا الأَمْـوات وبـثَّ الرُّعْـبَ فـي قلـوب المحتشـدين علـى التابُـوت، سـقطَ القاتل فـي قبر المحقـق قبل أن يسـقُط المحقـق فيهِ.

جرَدوا أَسلِحتهُم وتشتَّت شملهُم ووجهوا أَسلِحتهُم بِاتِّجاه الصياد وهُم يطلقون النار، زَحَفَ الزَّحَّافُ بين الأَشجار وأصوات إِطلاقات النار يزداد دَوياً وأزيزها من فوق رأسهِ ولغط أصواتهُم لا زالَ بعيدا. نهَض يَعْدُو ليخرج من الأَشجار إلى ما بين القبور يركُض ليصل إلى الجدار الفاصل بين المقبرة والشارع. تَسَلَّقَ الجدار وعَبَرَ الشارع يَعْدُو بسرعة تاركاً ما وراء الجدار اِبتِسامة الدَفّان وهو يقول:

«كَانَ قبرٌ واحداً وصارَ اِثنَين، فشُكراً لله وللذي أَطْلَقَ رصاصةُ الله».

الشَّاعِـــــر

✵ 1 ✵

الحِيرَةُ والتشتُّت بدَا على كُل الأَجْهِزَة الأَمنية في المدينة، بعد أن سقط ابن السياسيّ في قبر المحقق الذي حفرهُ لهُ حتى أن الْمُرَابي لم يهتم بمقتلهِ أحد. أجواءٌ يسودها الاضطراب والتَّوَتُّر والترقُّب مما آتٍ. هذا كلهُ رآه الصياد في عيون رجال الأمن، أما الناس يمثلون الاضطراب لكنهُم فرحين بهمسات النصر التي يهمسونها في قلوبهُم وفي أُذْن بعضِهم البعض. لكن شَدَّ اِنتباهَهُ إقْبَالُ الناس على الجرائد بعد أن سمِعوا في التلفاز أن هُناك شَّاعِرا كتب قصيدةً بحق من يقتل في المدينة وأسماهُ الصياد. دُهشَ من بَصيرة هذا الشَّاعِر النافِذة في قراءة قضيتهِ وأنهُ بالفعل كما وصفه، لكن كيف عرف ذلكَ؟!. ظَلَّ هكذا يسمع صفتهُ تَتَرَدَّدُ على أَلْسِنة الناس، انتابَهُ شيءٌ من القَلَق بأن أحداً ما قد عرف شكلهُ وأن الأمر كُلهُ فَخّ وضعوهُ ليصطادوهُ، ولكن قطعَ الشَّكَّ باليَقِين حينَ اِشترى أحدى الجرائد وبدأ يقلبها وصولاً إلى الصفحة الثقافية التي وَجدَ فيها قطعةً نثريةً طويلة يقرأها لسانِ قلبهِ، عنوانها:

أنـــا والصَّيَّـــادُ

أبديةً هي كلماتهِ مرسومةً بالدم، فانيةً هي كلماتِ مخطوطةً بالحبر. إصبعهُ يحفر الحروف في القلوب.. قلمي يكتُب الحروف بين السطور، لون كلماتهِ أحمر و لون كلماتي أسود، يلبسُ ثوب

الثـورة.. أنـا أرتـدي ثـوب الحـداد. مقنـعٌ بِقنـاعِ الخفـاء.. مُقنـعٌ أنـا بقنـاعِ الغـرور. يشـمون عطـرهُ كُل يـوم.. يفـرون منـي..... صـوتُ رصاصـهِ أعلى مـن صدى نثري، سـيبقى صوتـهُ حيا ويمـوتُ صوتي. هزمني شـرَ هزيمـة، قتـلَ جُبني بسـطوةِ شـجاعتهِ، بيننا مسـافةُ طويلة، كُلما طويـت أمتارا بعُدت عنـي أمتـارا. أراهُ في وجوهِ النـاس، لا أرى نفسـي فـي وجوههُـم.. أسـمعُ مـا كُتـب بالـدم، لـم أسـمع مـا كتبتهُ بالحبر. هـو الرصاصـة والكلمـة، أنـا الاعـزلُ بكلماتي. هـو الحاضر والمسـتقبل.. أنـا الماضـي الصامـت، أراهُ وأشـتاقُ لرؤيتـهِ لكنـهُ لا يرانـي إلا بشـعري، ثـمَ قائـلٌ يقـول: مـا نفـعُ الأجسـاد تلتقـي إذا التقـت الأرواح!، أنـا اقـولُ لـهُ: لقـاءُ الأرواحِ بالأجسـاد يقتـل طيـفَ الِاشـتياق. هُنـاكَ يكـونُ خلاصـي بعدما سـئمتُ الحيـاة، لكن السـأم تحـول اليوم إلـى أمـل بيـن يديـن تخـطُ العبـارات بالـدم. آنَ الرحيلُ والقلـبُ مطمئن، عبـارات الدم تحولـت إلى ثـورات. يا ليتنـي أموتُ بحظرتـهِ، ليخُـطَ إصبعـهُ آخِـرَ حروفـي بالـدم علـى جُـدرانِ بيتـيَ العاري... مُنتظـراً قدومـك أيُها الصيـاد، أنا بشـرٌ يُريـدُكَ أن تصطاده، لكـن... أصطـد كلماتـي قبـل جسـدي ففـي الكلمـاتِ علـوٌ وفـي الأجسـادِ فنـاء. رصاصةٌ مـن مُسدسـكَ تُحررُنـي من جسـدي وكلمةً مني تُحررُكَ من ذنبي...

بابي مفتوحةً واقفة تنتظرُكَ

وأنا واقفٌ خلفها لأستقبلُكَ

أراد أن يجد لهُ اسمٌ يستدلُ بهِ على شخصهِ أو مكانهِ لكنهُ لم يجد سوى لقبهُ مكتوبا تحت القطعة النثرية: بخط الشَّاعِر المَنْسِيّ. ثُم حدثَ نفسهُ: أنا قبلتَ دعوتُك أيُها المنسي. مشى بين الناس وهُم يهمسون باسمه، يراهُم ولا يرونهُ فتلك غايةُ الثورة تبقى نارها تُنير دربَ الإنسان والذي يحملُ مشعل النار خلف ستار الظلام مُتخفيا كأنهُ جُنديٌ مجهول. قطعة نثرية سيُعدم عليها هذا الشَّاعِر أو يُعتقل، هكذا قال لنفسهِ. إذن عليهِ أن يجدهُ قبل أن يجدوهُ. فَتشَ في ذاكرتهِ عميقاً عن شَّاعرٍ ما قد مرَ عليهِ في رحلاتهِ مع العجوز، وأخيراً وجدهُ لكنهُ ليس على يَقِين أنهُ المنسي أو لا. فعلى رمال الساحل حيث البحر يضرب بمدهِ الصخور أشار العجوز في يوم ما إلى بيتٍ مُتهالكٍ يطلُ على البحر وقال:» هُناك يسكنُ شَّاعر هَجر البشر بعد أن هَجروهُ» فسألهُ الصياد: فلنذهب إليهِ. ضحكَ العجوز وهو يفيضُ بلاغة:» لا تقتحمَ سَّكِينَة شَّاعرٍ حتى يدعوكَ ولا ترافقهُ حتى يُرافقكَ» أجابهُ: لم أفهم!. امسك بيدهِ وقال: «أقرأ كلماتهِ قبل أن تسمعها من شفتيهِ، فالكلمات تخرج من فمِ فكرهِ أما سماعُها فهي تخرج من فمِ جُنونهِ». خَطّ طريق لقاءهِ بوقعِ أقدامٍ ثابتة لا تَهَاب حتى السقوط في فَخّ الموت لأنهُ سقط بفَخّ الفضول للقياهُ، يسمعُ العجوز الآن بأُذنِ ذاكرتهِ يقرأ بعض أبيات قصيدةُ المصلوب لذاك الشَّاعِر الذي يطمحُ بأن يكونَ هو:

الْمَصْلُـــوبُ

مصلوبٌ أنا بين الحياةِ والموت

أنظُر إلى الحياة فتسخرُ مني

ثُم أنظر إلى الموت فيضحكُ عليَ

قدرٌ أسود يحملُ مطرقةِ العقاب

دقَ مساميرهُ في كفيَ وفي قدميَ

أنتظرُ ملِكَ الموت

يأخُذني بعيداً فوق جناحيهِ

هُناك سنلتقي ونُغني

نحنُ المعذبون في الأرْض

سيغدقُ علينا من في السَماء

فـي كُل كلمة مـن كلمات هـذه الأبيـات هُنـاك شـوق للرحيل من جسـدهِ ومـن هـذا العالـم لكنـهُ مصلـوب، الأيـام تمـرّ يوماً بعـد يوم تُنهـك جسـدهِ وتصـرخ روحـهُ لمغـادرة سـجنها. وأخيـراً وجـدَ مـن يُحررهُ ويدعهُ يُمسـك سـماء الحُرِّيَة بعـد أن عاش فـي أرض العُبوديَّة زمناً طويـلا. خَرجَ مـن المدينة وهو يَشُـمَّ نسـيم البحـر وألَم الشَّـاعِر المَنْسِـيّ هُنـاكَ، تـركَ ذاكرتـهُ وراء مخيلتـهِ تتخيلـهُ واقفـاً وراء الباب يُرحـب برصاصـه قبـل أن يُرحـبَ بـهِ. تملكـهُ شـيئاً مـن التـردُدُ فـي

لقائـه، فهذه المـرة الأولى التـي يدعوهُ أحدهُـم ليصطـادهُ، وقفَ على السـاحل ينظُـر إلـى بيتـهِ المُتهالـك علـى ربـوةٍ جُرفهـا متـأكل، فقـد أكلهُ مَدّ البحرِ الهائج وهو يُخاطبهُ من وراء مخيلتهِ:

«اصطـدتُ كلماتـكَ قبـل أن تصطـاد رصاصـةِ واصطادتنـي كلماتُك قبل أن تصيدُك رصاصةِ».

✵ 2 ✵

طـرقَ البـاب الخشـبي العتيـق، لـم يُجبْـه أحـد، تجاسـرت يـدهُ فدفعتـهُ فـإذا بـهِ مُـوَارِب والمَنْسِـيّ وراءهـا يظهر واقفـاً ينتظـرهُ، عتبة البـاب تفصـل بينهمـا، أدار المَنْسِـيّ وجهـهُ وهو يمشـي إلـى الطاولة التـي تتوسـط الصالة، سـحب كرسـياً وجلس. دخـل بخطـواتٍ ثقيلة تِئِـنُّ مُتَـرَدَّدة خائفـة وكأنـهُ يدخـل عَرِيـن أسـد. مـن حولـهُ الجدران عاريـة اللـون والصـور وغرفتـان خُلـع بابيهمـا ووقـف بـدلاً عنهُمـا الظـلام. مكتبـةً مركونـةً في الركـن خلـف المَنْسِـيّ علـى يمينـهِ ثابتة قدماهـا فـي الأرض ورأسـها يمـسُ سـقف الكـوخ، خلـف خيـوط العنكبوت والتـراب تلاشـت عناويـن الكُتب وكأنـهُ لم يمسسـها مُنذُ سـنين. شَـمَّ رائحـة الكآبة تفـوح مـن جَنَبات بيتـهِ فهـو مقيمٌ هُنـا بعد أن طُـرد التفـاؤل والأمل بثقـلِ أيامـهِ التي تحمـلُ أحزانـهِ. وقف على حافـة الطاولـة وأوراقـهُ مُتناثِرة عليهـا منها البيضـاء وأُخرى مرسـومةً عليهـا كلماتٍ سـوداءٌ لونهـا، يُلاعـب الهواء بعضهـا تنتفـض تُريد أن تطير وتخرج مـن النَّافِـذَةُ لكنهُ يسـجنها تحـت قبضته، فهي لـهُ وحدهُ يسـتأنسُ المَصْلـوب بهـا غيـر شـاعرٍ بالْوَحْـدَةِ يقرأهـا بصـوتٍ عـالٍ ليسـمع بهـا نفسـهُ ويَطـرب بهـا الأَشـباح التـي ترقـصُ علـى نغمات أَوزانها ورَنَّـة لفظها، وبعـد أن تتَفَـرَّسَ بمعناها وقـوة اِنتِحـارِ كلماتها فـي جـوف الحقيقـة تبكـي وترحـل صارخـة من بيـتٍ كئيـب مخيف يسـكنهُ مصلوبٌ مَنْسِـيّ، يُحدق بـك الجنون فـي كُل ركنٍ مـن أركانهِ

ويطُلْ برأسه من الأَبواب والنوافذ ويصرخ بكلماتهِ التي فَرَّ منها كُل إِنْسِيٍّ وجِنِّيٍّ، فبقى وحدهُ يُخاطب ذواتهِ اللواتي اختبأن في جُحُور النفس، ليبقى وحدهُ مع روح الشَّاعِر يسمع منهُ رِثَاء النفس للنفس منتظراً من يُحررهُ، وها قد جاء من يخلع مسامير صلبهِ ويُلهمَ رفيقهُ الشجاعة للخلاص منها بين الطريقين، ليأخذ طَرِيق السَماء وينظر بعدها للجُبنِ في جسدهِ يموت ويتعفن في قبرهِ. جلس الصياد مُحدِقا بعينيهِ الخضراوين بعد أن خفُت لونهما وتجعد وجههُ المتعب، المُتدلية منهُ لحيةً اخْتَلَطَ بها الشيب بالشعر الأسود حتى بَهِتَ لونُها، يتململ من جسدهِ ضَجِراً، لا يتكلم حتى نفِد صبرُه فبادرهُ الصياد سائلاً:

– أنتَ الشَّاعِرُ المَنْسِيّ الذي تكلم عني في قصيدتهِ؟.

– أنا الإنسان والمَنْسِيّ المصلوبُ في هذا الجسد.

اطمأن من أنهُ المَنْسِيّ، ثُم مَدَحَهُ بكلماتٍ مُزَوَّقَة بالمُجامَلة:

– جميلةٌ هي القصيدة التي كتبتها عنا.

– لم اكتُبها أنا بل كتبها الشَّاعِرُ المَنْسِيّ.

– وهل هُناك فرق، فأنتَ هو وهو أنتَ!.

– هُناك فرقٌ كبير بيننا، فأنا الإنسان الذي يحملهُ في داخلهِ، هو يقول وأنا اكتبُ ما يُملي عليَّ.

– هو اسمهُ الشَّاعِرُ المَنْسِيّ وأنتَ ما اسمكَ؟.

تبسم بابتسامة حاذقة وشفتاه المتيبستان تقولان:

– كلانا غادر أسمه منذ زمن، وعشنا وتربينا في أرض الإنسان، حيثُ لا اسمٌ هُناكَ يحددُ عرقنا ومكاننا ودينا، هوياتنا نثرناها في أرضنا، ففي الأسماء عُبُوديَّة وفي الصفات حُرِّيَّة. نعم، وحيدان ومغتربان لكننا حُران من كُل قيدٍ، في كُل يوم تنظر للبشر وهم يحملون أسماءَهم الممنوحة لهُم، فهل ترى فيهم أملا ينبض بالحياة أو إرادةٌ قوية تدفعهُم بأن يضرموا النار في إِرثهم العفن؟، وهل ترى الشجاعة في قلوبهُم؟. بل ترى الجُبنَ بكُل صورهِ. خانعين مطيعين لما تُمليه عليهُم أسماؤهُم هي وأولادها يضربوك بقوة تعصب سياط الدين والمذهب والعقيدة تاركين الوجه الآخر لها، هؤلاء أكبرهُم، وبعد أن يتعبوا يرموك بثقلِ حجارةِ الإِرث في وجهك وبطنك ويضعوها على صدرك تجثو كالعلة، صلبتها الأَيام والسنين وهذا أوسطهُم، أما صغيرهُم المكان الموسُوم باسمك الذي يسحبك إلى قاع الضحالة فتنغرس قدميك وتشلُ يديكَ وغيرها من الأَولاد الشرعيين الصغار وغير الشرعيين. أبعدَ هذا كُلهُ تريديني أن افتخر أمامك أن لي اسمٌ بعد أن غادرت أنتَ اسمكَ!؟.

– هذا صحيح فنحنُ نتشابه بهذه النقطة ولكني لم اتصورك هكذا تتفرس الأُمور!.

– نحنُ لا نتشابه ولكن طريقَنا واحد، وتصورك أني لست سوى إنسانٍ فيَ شَّاعِر بائس لم يقرأه أحد فيحاول قتل نفسهِ.

هذا كُلـه غير صحيـح فأنـا مقـروءٌ وتلـك مصيبتـي، كلماتي لـم تنفذ لعقولهـم التـي قرأتها وصفقـوا لرنيـن موسـيقاها السـعيدة والحزينة، هي بقـت فـي الكتـاب وتناثـرت فـي فراغهـم. رَمَـوْا الكتـاب وظلوا يبحثـون عنـي، ويتسـاءلون: مـن الـذي كتـبَ هـذا الشـعر؟ نُريـد أن نـراهُ!. ضحك وقـال: أنـا لـم أرهُ فكيـف يمكنهم ذلـك!، يـا لهُم من جهلـةٍ لا يفقهـون شـيئاً، أَحس بـهِ وأسـمع كلماتـهِ التي تتشـرب فيَ، اقرئـوا ما كتب، فالشَّـاعِر روحٌ في كلمة تسـكنُ جسـد إنسـان. لكنهم قرؤا ونَسُوا وساقهُم فضولهُم لرؤيتهِ.

– اليـوم صيـدي ثميـن لا يقـارن بـهِ أي صيـدٍ، وهـل فـي الوجود شيءٌ أثمنُ من الكلمة؟، تتناسل إلى كلمات في بيت الحقيقة.

– خُذ صيدك واتركني لأصطاد.

– هذا ما كُنـت تريدهُ مـن قصيدة أنـا والصيـاد، أن أتِيـكَ واصطاد كلماتُك ومن ثُم اصطادُك.. لا أستطيع قتلُكَ ففيهِ ذنبٌ عظيم.

– لا أريـدك أن تضغـط علـى الزِنـاد بـل فقـط أن تضـع الرصاصة في المُسدس.

– ومن يضغط على الزِناد، أهو المصلوب؟.

– إذن تعـرف بعذابـي كيـف تركنـي القـدر بعـد أن ثبَتَ مسـاميرهُ بقدمـي وكَفَّـيَّ فأصبـح مصلوبـا هـو الشَّـاعِر الـذي يتعـذب ويريـد الخلاص لكن الإنسان ما أَجْبَنَهُ.

– المصلـوب هو الشَّـاعِر ويُريد الخـلاص ، وما ذَنب الإنسـان أن يقتل نفسهُ ليتحرر غيرهُ؟!.

– كلماتـهِ انتشـلتني مـن وحـل الإنسـان وتسـامت فـيَ إلـى الأعالـي. أشـار بأصبعـهِ إلى جسـدهِ وأسـتمر قائلاً: هـذا هو بيتنُـا كُنا فرحيـن نمـرحُ فيـهِ وكُلنـا أمـل أن نُصلـح نفـوس النـاس بـأن نبثـق فيهُـم الثـورة ضـد كُل مـا يخـلُ فـي نظـام الإِنْسـانِيَّةِ، لكننـا فشـلنا واكتأبنـا، إلى أن ظهـرت أنـتَ، بعدهـا عرفِنا لماذا فشـلنا؟. لأننـا كُنا نصـرخُ بالكلمـة فقـط وهـذا لا يُغيـر شـيئا إن لـم يتحـد معـهُ أزيـز الرصـاص، ففي كُل يـوم يحَثني المَنْسِـيّ على ذلـك فلم اسْـتَجِبْ لهُ، ليـس عِنـاداً أو عـدَم اِقتِنـاع فـي الفكـرة بـل جُبنـاً. انزويـتُ مـع ألـم الشَّـاعِر المصلـوب إلـى أن صـرخَ بقصيـدة أنـا والصيـاد ليمتدحُـك ويَعـرف الناس بصفتُـك وهي الصيـاد. فأنا أريـد أن اغادر هـذا العالم كمـا يُريـدهُ المَنْسِـيّ لسـببين: أولهمـا مـا عانـاهُ مـن جهـل الإنسـان وآخِرهمـا مـا تحقـق بعـد أن اكتملـت رسـالتهِ بصـوت رصاصـكَ والسـببين الآخريـن اللذيـن يخُصانـي هُمـا سـأم الحيـاة وقتـلُ جُبني بضغطـة زِنـاد مُسـدسٍ بإصبـع الشَّـاعِر مـن كفـهِ المُرتعشـة المُثبتـة بمسمار الشر.

زَفرَ وهو مثقلٍ من كم صيدهِ، ليقول:

– فهمت ولكن كيف عرف أو خمنَ الشَّاعِر أن لقبي الصياد؟!.

صمت وهو مطأطأ الرأس ليقول الشَّاعِرُ المَنْسِيّ:

– نـاداكَ أحدهُـم فقـال لـك رافقني سـأجعلُك صيـادا كمـا نادى المسـيح الأخويـن سـمعان وهُمـا يُلقيـان الشـباك فـي البحـر، فقـال لهُما: «هلما ورائي فأجعلكُما صيادي بشر».

صمتَ قليلاً وأكمل:

– اصطدت النور من الكلمة الذي اصطاد الظلام في الإنسان.

تملكـهُ الإِعجـاب بسـماع واقعـة المسـيح مـع الأخويـن سـمعان ومدى تشابهها بما حدث معه، حدثهُ قائِلاً:

– إذاً نور عبارات الدم اصطادت الظلمة في قلوب المُستعبدين.

– إنها كلمات أنشودة.

– أنشودة؟!.

– كتبـتَ كلماتهـا بالـدم وغنتهـا أفـواه المظلوميـن ليخرجـوا من الظلمة إلى النور.

تململ الشاعر في جلسته وزفر حسرةً:

– هـذه أنشـودة الإِصطيـاد يرددهـا المقهـورون أمـلاً برؤيـة نـور الحُرِّيَـة بعدمـا اطبـق ظـلام الزنزانـة عليهـم ويغنيهـا اليـوم أبنـاء مدينتك.

– أسـمعهُم.. لكنـي لا زلـتُ أراهـم يتأرجحـون بيـن النـور والظلام.

هـمَّ ناهضـاً وقبـل أن يلفـظ كلمـات الـوداع، ضـرب الشَّـاعِرُ المَنْسِيّ بقبضة يد الإنسان الطاولة وقال:

– أتهرب؟. تتركني مصلوباً في هذا الجسد مع هذا الجبان!.

– الهرب منك أفضل من الشعور بالذَنب من قتلكَ.

– ضـع الرصاصـة فـي المسـدس وسـأقول لـك الكلمـة التـي ستُحررك من ذنبي.

أَخْـرَجَ مسدسـهُ ولا زال يشـعر بالتـردُّد لكنـهُ تجاهـل تـردُّدهُ بمـا سـوف يسـمعهُ منهُ، فرغَ الرصاص مـن المسـدس ووضعهُ فـي جَيْب سـترتهِ مـا عـدا رصاصـة واحـدة دسـها فـي حُجـرة النـار، ناولـهُ المسدس ثُم نَطَقَ يتَهَدَّجَ بكلماتهِ:

– قل لي ما هي الكلمة.

– اِترُك المُسدس بيدي وسأقول لك.

تـرك المسـدس والشَّـاعِر يتلمس بـرودة قبضة المسـدس وملامح رفيقهُ تتلون خوفاً وقلقاً لكنهُ مستمتع يقول:

– أنظُـر لهُ كيـف يتعلـق بالحياة، إنـهُ يرتَعِـش ويتصببُ عرقـاً على الرغـم مـن حياتـهِ البائسـة، يملـك المسـدس لكنـهُ لا يجـرؤ علـى لمسِ زِنـادهِ، أمـا الآن فجُبنهُ أسـيرٌ بحضرتُك، اشـرأب عُنق شـجاعتهِ التي أشـعُر بها الآن شـيئاً فشـيء، وترى الآن كيـف خفت اِرتِعاشـاته وتفتـح لونُ وجهـهُ. ثوانـي تفصلني عـن السـقوط من خشـبة الصَلب

لكـن قبلهـا يجـب أن تعـرف منـي الكلمـة التـي سـوف تُحـررك من ذَنبـي ولكـن قبـل ذلـك تَكتـبُ بدمـي على جـداري العـاري عبـارة: «حررنـي الصيـاد مـن صَلبي كمـا حررتـهُ مـن ذَنبـي». أما مـا يخُص خلاصُـك مـن ذَنبـي فهـي كلمـة واحـدة تجمـع كُل شـيء: كلماتي. وهـذه الكلمـات التـي اصطدتهـا هـي التي سـوف تُحـررك مـن ذَنبي ورصاصتُك هي التي سوف تُحررني من صَلبي.

ابتسـم رفيقهُ وهو يسـحق الزِنـاد واضعاً فوهة المُسـدس فـي فمهِ، ثُم ضغـط الزِناد بقـوة تحـت إِصْبَعُـه ليتحـد دَوِيُّ الطلقة مـع تَناثُر دم رأسـهِ على جـدارهِ العـاري وأَوراقـهِ ومن خلفـهِ كُتبـهِ. حـزن الصياد وقَلْبَـهُ مثقـل بالذَنـب الـذي بدا يتلاشـى بسـماع صـدى كلماتـهِ وهو مُكَـوَّم تحـت الطاولـة، نهـض محنياً عليـهِ رافعـاً إياهُ، أجلسـهُ مكانهُ وعَدَلَ رأسـهُ بـأن أسـندهُ علـى الكُرسـي، أَغْمَضَ عَينَيـهِ وِالتفـتَ إلى الجدار الذي تناثر عليهِ دمُ رأسهِ، ماداً إِصبعهُ بقُدسيةً يخُط بالدم:

«حررني الصياد من صَلبي كما حررتهُ من ذَنبي»

ثُم اكمل إِصبعهُ يخط:

«الصياد وضَع الرصاصة والشَّاعِر ضغط الزِناد»

✵ 3 ✵

وَجَع الجسد ليس كوَجَع الروح، فالجسد يلفظ ألمهُ بدواء أما الروح تجترح الألم ويَكبُر في داخل النفس المثقلة بالهجران والشعور بالإغتراب في أرضٍ مهما أحبَّت فيها فهي تشعر بالوجع من نفيها خارج أَسْوَار عالمها. نارٌ تَسعر في قلب ألمِها تَخْبُو فترة وتَسعر أياما، يجامل الوجه بابتسامة تُقنع ما وراءهُ من صراخٌ ودموع وحرقه تلهُب النفس التي لا تستكِين ولا تهدأ حتى مع جوار نفسٍ تُحبها. ففي غِيَاب الحبيب تَسْتَفِزُّ الوحدة ألمها الذي يزورها بكلابهِ المسعورة التي تقطع أَوْصال الروح، فتَهْدِرُ العيون دموعاً ساخنةً وتجهش النفس بالبكاء وهي تتألم في رِحاب الروح المَنهوشة بأنياب كلابٍ لا ترحم في أجواء الوحدة تنادي الذاكرة بفَرحها وتَرَّحَها، فتتصارع معها حتى تَنَشَّفَ دموع العين ويبقى حُزن الأَيام يخيم على مخيلتها وهي تنبُش في ذاكرتها صوتُ أهلها وهُم يطردوها من عالمها إلى عالمٍ آخر، لذَنبٍ لا ذَنب لها بهِ سوى لأجل رغيف خُبز يسد جوعهُم. وهذا النَفي أتى بعد أن استباح الرجال بمعاولهُم شرفها في قلب المدينة الباغية. طّريقُ وعِر هو طريقها لكنهُ مشرقٌ بحبيبها، يطردُ الوَحْشَةُ من نُباح الكلاب المسعورة التي تراقبها وهي تسير في الطّرِيق، يطيب وجعِ عضاتها لروحها وَيُلَجِّمَ جُبنها يدهُ فتمشي بقوة الإرادة المَمنوحة لها بدفراتِ طفلها في بطنِها. تستند على اثنين واحدٌ في قلبِها

والآخر في بطنها، تاركةً الليالي الحمراء تُطاردها كالأَشباح في مقبرة. كُلما رَفَسَ رَفَسَةً أَحسَّت بحياةٍ ثانية أقوى تتَمَخَّضَ في قلبها، تُمسد بيدها على بطنِها فيهدأ لكنهُ يُعاود الرَفَسَ وكأنهُ مشتاقٌ يُريد أن يحتضنها ويُزيح حُزنها ووحشتها التي تُحيط بها. جففت دموعها فإذا بها تتفاجأ بالصياد واقفاً أمامها يتأملها بوجهٍ مُتَجَهِّمٍ مُغبَرٍّ لا ترمش عيناهُ فيهِ، نهضت وهي تقول:

– ما بكَ وما الذي حدثَ؟.

أجابها وهو سَارِحٌ يسمع دَوى الطلقةِ مع تناثر دمهِ، فاتحاً فاهُ بكلمة:

– اِنتحر.

– من الذي اِنتحر؟!.

– الشَّاعِر حرر نفسهُ وقتلَ جُبنَ رفيقهُ بطلقةٍ واحدة.

– أي شَّاعِر ورفيق هذا؟!.

– شَّاعِرٌ مَنْسِيّ يسكُن جسدِ إنسانٍ جبان.

– أهو صديقك؟.

رمقها بنظرةِ جامدة ثاقبة ثُم نطَقَ بحُزنٍ شديد:

– أصبح صديقي بكلماتهِ ورفيقي في ثورتي لكنني وصلتُ متأخراً.

– ولماذا انتحرَ؟!.

- تحررَ من صَلبِهِ بين الحياة والموت!.

- تحررَ من ألمهِ، فهنيئاً لهُ.

- هو تخلص من ألمهِ وأنا غارقٌ بألَم الحُزن عليهِ.

لامست بطنها المُكَوَّرة بطنهُ وطوقت يداها عُنقهُ، سرت فيهِ حرارةُ يديها ورفَسَ طفلهما وكأنهُ يَشْكُو، حدَجَها بنظرة تلتها بضع كلماتٍ خرجت من فمِ بصيرتهِ:

- نارُ ألمُكِ أقوى من نار أَلمِ.

صمتت، مغمضة العينين واِستمر يُحدثها:

- فهمت من صمتُك ورفسَة الطفل، هي الذاكرة اللعينة التي ترمينا بسهامها حينما ترانا نتجول في باحة السَّكِينَةُ، فتَهجُم كأنها ذئبٌ جائع يقطع بأنيابهِ اللحم ويطحن العظمَ. نصرخ ونبكي بتوجع الروح من وجع صوتها تعوي في أذان ذاكرتنا، فهي تستدرجُك إلى الأَحزان وتطمر الأفراح تحت قدميها. لا تستسلمي لجَبَروتها فهي عَنِيدة وشقيَّةْ تُردد صدى أهلكِ في جوف قلبُكِ وتعتلي قمة ألمكِ ضاحِكة، فلا تُكابري في تجاهُلها بل قومي وقاتليها بسيف اليَقِين الذي يخطُف بصرها ويسكتُ صوتها لكن ليس طويلاً، فأنتِ مسلحة والقتال مستمر معها ما حييتِ، كما أنا أُقَاتِلَها وهي تُردد صدى أصواتِ بنفي ونَبذي عنهُم وكأني مَجذُوم. صُراخِ هذا الطفل سيرمي بها خلف ظهركِ، أَيام تفصلكِ

عـن الـولادة فـلا تستسـلمي لذاكرتُـكِ كمـا أنـا، فالحُـزن زائـرٌ الآن وسـيبقى إذا أنـا سـلمتهُ مفاتيـح ذواتـي لكنـي جعلتـهُ يطـوفُ فـي روحي وعلى نفسي وسيخرُج دون أن يقتحم أبواب ذواتها.

- كلماتُك اِستَنهَضَت هِمتي وبثقت القوة في إرادتي.

- بيني وبينك الآن طفلٌ يرفس وفي رفستهِ أمل فلا تقتليه.

- لأجلهِ نعيش ولأجلهِ نموت.

خـفَ دويَ طلقة الشَّـاعِر فـي ذاكرتهِ وعلـى صوتهِ بكلمـات وهو يُعانقها:

«كلماتُك قبرَت ذَنبي وقتلت حُزني وصَلَبت إرادتي».

✵ 4 ✵

أحاطت سيارات الشرطة بيت الشَّاعِر من كُل جهة، في نيتهُم أن يعتقلوهُ بعد أن اِمتَدَحَ الصياد في قطعتهِ النثرية التي دخلت قلب كُل من قرأها، فبسببهِ تَرَدَّدَ لقب الصياد على كُل لِسان يتغنون بهِ على مسمع سلطات المدينة، حتى عجزت عن إسكاتهُم. مستعملين شتى أنواع القمع من ضرب واِعتقالات وتعذيب نفسي وجسدي لكنهُم يزدادون شراسةً. وصلوا إلى بيت الشَّاعِر المتهالك كأنفسهُم العاجِزة المهترئة يريدون أن يمسكوا بخيط للوصول إليه بعد ما فُقدَ كُلِ أمل في الإمساك بهِ، فهو كالصوت الذي يُسمع فلا يُستدل على مصدرهِ، اخترق الناس وأشعلَ فيهُم نار الشجاعة التي التهمت جُبنهُم، يصرخون ويتظاهرون بعد ما كانوا خانعين خائفين متمترسين وراء جُبنهُم. أطلوا بنظرة خارجية على البيت ومساعد المحقق السابق قد رقيَ إلى محقق بدلاً عن المحقق المغدور. صرخَ البيت في وجوههُم المصفرة فأنتابهُم الخوف، أمسكوا مسدساتهُم وبنَادِقهُم متأهبين لأي مباغته، يخطون بقلق نحو الباب المفتوح التي تحركهُ أيدي ريح البحر العاتية وهي تزداد غضباً كُل ما دُنُوّ من عتبة البيت. غضب الموج وهو يضرب صخور الساحل تحت البيت بقوة لدخولهِم بيت جاره المنتحر ورذاذ ماء البحر يدخل من النافذة منتشراً على طاولة الشَّاعِر، يُبلل أَوراقهِ ويقذف دموعهُ المالحة

على وجهِهِ كقطراتٍ من ندى، ليالي وأيام يتحدث معهُ، يتغَزَّلَ بهِ، يُوَاسِيهِ في أَيام صَلبهِ. كذلك البحر يَشكُو لهُ فيغضب لغضبهِ ويفرح لفرحهِ، فهو الذي حملهُ على ظهرهِ في ليالي السُهاد عندما اِنكسرت مجاذيفهُ، سار بهِ إلى سواحل الحياة المشرقة ليخفف عنهُ وَحْشَة الخوف وألم الصَلب. باءوا بخيبةِ أملٍ جديده من مشهدٍ درامي يصعق الروح وترتعش لهُ الأَبدان. حَدَقَتْ بهِم أَشباح البيت، ضاحكين على خَيَّبْتهُمْ وفشلهُم في القبض عليهِ، فهو نادى و لبَّى الصياد نداءهُ فحررهُ من صَلبهِ بقوة شَّاعِرهِ ليترك لهُم جسداً أصمَّاً أجوفاً تطمع بهِ الديدان لإشباع جوعها، لم يبقَ لهُم شيء سوى عبارات الدم التي عمقت فيهم وهُم يقرئوها يَقِين رسالتهِ وحررت الصياد من قتلهِ. ولكن اليوم اِندَمَجَت مع رسالة الشَّاعِر حتى أصبحت شعلة الثورة ثابته فوق مَنارة الفكر تدور في أحداقِ الناس ليل نهار. لَفو الجثة وصوروا المكان وأخذوا عينات من الدم وبصمات متشابهة وأُخرى مختلفة لأقدام حيوان كان يربيهِ. بحثوا عن هذا الحيوان فلم يجدوا غير عينين صفراوين تتوهج في أسفل باب إحدى الغرف المظلمة، تقدمت وهي تلحس حذاء المحقق وتتمسح بين قدميهِ، متحدثاً بتَّهَكُّم: أمسكنا بقِطَّة وجُثة شَّاعِرٍ ثُم هرب الصياد مرةً أُخرى.

المُسْعَـــوَذة

✵ 1 ✵

يتمَلك الإنسان الخوف فيرمي نفسهُ في عالم الوَهْم لكن في مخيلته عالمٌ ينقذهُ من أَهْوَال الأقدار المخيفة التي زَجَّ بها الإنسان دون سابق إنذار. لهذا العالم أسْيادٌ على الأرض يقودون قُطْعَانٍ من الجهلة الخائفين المرتعشين بين يدي الخوف. يمتصون أَمْوالهم فيرموهُم بكلماتٍ مكتوبة في حجاب أو طَلاسِم أو تعاويذ تُخلصهُم مما هُم فيه من خوف. ضعف الإنسان هو من يتبع طريق الشعوذة ويقمع قوتهُ حتى يهيمن عليهِ وكأنهُ قوة خارقة تغير قدره فيستعبدهُ ويقضمهُ في فم الوَهْم حتى يسقط في قعرهِ. أسْيادٌ يتحكمون بأرواحهُم كما تستعبد أَسَاطيرُ العفاريت مُخَيِّلة الإنسان، يعيشون في الخُرافة التي تجرهُم إلى هُوَّة النار، يسقط فيها فيحترق بنار لا تلهب الجسد بل تلهب الروح وهي تتراقصُ فرحاً في حضرة ظِلالِ العفاريت التي يُخَيَّلُ لهُم أنها تنتشلهُم من الغنى إلى الفقر أو من الكراهية إلى الحُب أو من الجُبن إلى الشجاعة وهكذا تتنوع وتتلون رَغَبات الإنسان فهو جشعٌ يُريد كُل شيء كالنار عندما تَلْتَهِمُ كُل شيء. تزرع الشعوذة الأمل لكنها تزرع وَهْم الأمل فتكسبهُ الجُبن بمواجهة أقدار الحياة، يظل مختبئاً وراء شعوذتهِ فهي تنخر فيهِ كالأرضة حتى ترميهِ أجوفاً ومظلماً لا صدى لصوتِ روحهِ بل صدى لصوت أشباحِ التهمت شجاعتهِ وثقتهِ حتى مُلأَ فراغ وعيهِ بها. صوتٌ أو نخزَةُ ألمٍ أو

فـرح تُيقَّـظ الذَّاكِـرة ولكـن فرحـة امـرأة وهي تخـرج مـن أحـد أَزِقَّة المدينـة وهـي تقـول: « الطِّلَسْـمُ جعـل بطني تتكـور فشـكراً للعجوز وبركاتهـا التـي لا تبخل بهـا على أحـد». أيقظـت ذاكِرتهُ وهـي تتمثل لهُ فـي المقبرة كشـبحٍ أسـود طمسَ ملامحـهُ تُـراب المقبـرة. نظر في فم الزُقَـاق والظلمـة مطبقة علـى نهايتـهُ. تحـرك بجانب ظِـل الجدار والشـمس قد مالَتْ إلـى الغروب، أَبـواب المنـازل الخشـبية القديمة مغلقـة يجتازهـا بمشـيتهِ الحـذرة إلا بـاب نَفَـذَ نـورٌ مـن فتحـة بابـهِ الصغيرة وشَـمَّ رائحـة غريبة من البخـور القديـم والعفـن مختلطاً مع بِـراز القطـط والـكلاب فـي الزُقَـاق وهـي تُحـدق بـهِ. نظر مـن فتحة البـاب فلم يُشـاهد سـوى ضـوء أصفـر مَغشِـي عليـهِ دُخّـان المِبخَرة وسـواده تتكوَّر في ركـن الغرفـة المحاطة بالجـدران، لا مخـرج منها سـوى هـذا البـاب. فتـحَ وأغْلَـقَ البَـابَ وراءهُ فسـمع صوتـاً مملـوءاً بالحَشْـرَجَة: مـن هُنـاك؟. لـم يُجبهـا فظَـلَّ يُزيـح دُخّـان البخـور المُتكاثـف بيدهِ ويَمُـدُّ وجههُ بيـن غيوم الدُّخَـانُ المصفـر حتى برزت ملامحهُ فـي حدقتـي عينيهـا كما التمـع ناباهـا الأصفـران فـي عينيهِ. قامـت فَزِعـة وهـي تحمـلُ صُـرَّةٍ بيدهـا والخـوف قبَـضَ علـى قلبها كما قبَضَ على فمها الذي تَمْتَمَ:

– ما الذي تُريدهُ مني؟.

– أريد أن أُخلِص الناس من شعوذتكِ.

– أنا أُساعد الناس بتسهيل أمورهم لا أضرهُم بشيْ.

– أنتِ يدا الوَهْم وقدما الكَذِب ووجه الدَجَل.

– أنا لستُ كذلك وأنتَ لا تقتل امرأة عجوزاً وحيدةً بل تقتل كبار الفاسدين.

– أنا أقتُل الشر فيكِ وما جسدكِ إلا بيتٍ لهُ.

أرادت أن تنفَذَ من الباب لكنهُ أمسكها وهي مذعورة يلعق لسانها نابيها وهي تتوسل: – وعدٌ مني سأترك هذا العمل لكن اتركُني أعيش.

– أنتِ مقتولةٌ مُنذُ زمنٍ طويل ومهروسةٍ تحت أنياب العفاريت، والذي يتكلم هو خوف الشعوذة من أن تموت اليوم فهي تَسْري في دمكِ وتتلاعب بروحكِ واستوطنت في ذواتُكِ. أي وعدٌ هذا يخرج من فم الشعوذة، كلماتُكِ لا أسمعها وقلبُكِ لا أشعر بنبضهِ ورعشةُ الخوف هذهِ ليست لكِ. تعبَثين في القبور ثُم تأخذين عظام الموتى وتطحنيها فتنثريها في وجوه الجهلة الخائفين، يبحرون في بحر اللَّعْنَات وتضحكِين من أرض الوَهْم عليهُم. سأخرس الوَهْم والكَذِب وأطمر اللَّعْنَة التي تزرعينها في روح الإنسان.

حاولت أن تَفَلَّتَ من يدهُ، فضربتهُ وعضت يدهُ، ففَلَتَت من قبضتهِ إلى ركن الغرفة وهي تستعد للهجوم، مُكشره عن فمٍ مظلم يلمعُ فيهِ صَفار النابين ولسانها يلعب بالكلمات:

– سأمزقُ قلبك بهذه العظمة إن اِقتَربت مني.

حاصرها في الركُن وهي تستشيط بفَوْرَة غضبٍ ثم أقْبَلَت تضربهُ لكنهُ أَمسَكَ يدها كأنها عَصا راعي غنم، أخذ منها عظمة الجثة التي فَرَّتْ بها من المقبرة ثُم أَمسَكَ برقبتها وهي توليهِ ظهرها فقال لها:

- أنظري إلى هذه العظمة المدببة وأشعري بقوة غضب الأَموات في قلبكِ المشعوذ.

غرزها في قلبها فتناثر الدم سريعاً منهُ، غصت بفَوَرَانُ الدم يخرج من فمها، تقلبت عيونها فأفلتها وهي تسقط على ظهرها والعظمة في قلبها والدم في كَفَّهِ حارٌ يصرخ بغضب العَدَالة الإنسانِيَّة وهي تتحقق. شَمَّ رَائِحَة الغرفة وهي تغرق بدُخان البخور مع رائحة العفاريت الهاربة، فاستسلم إصبعهُ مأموراً وهو يكتُب على جدار غرفتها المُقابل لبابها التي تطُل على الزُقَاق:

«صاحِبُ العَظْمَةَ من قتَل الشَّعْوَذَةُ»

✵ 2 ✵

هرَبَ الصمت من صرخات المَخَاض التي قَمَعَت الهدوء في أركان البيت واختبأت السَّكِينَةُ في جحورهِ كالفئران. تتلوى من الألَم ويدها تمسكُ يدهُ بقوةٍ فكلما صرخت صرخ قلبهُ شفقةً وخوفاً عليها. يتفَصَّدُ جبينها عرقاً من قوة الضغط والألَم، يريد أن يخرج إلى عالم تكون فيهِ طَّرِيدَةَ حتى تصبح فيهِ صيادا، متشوقًا لا يسمع أَلَم أمهُ فهو أسيرٌ مُكتَّف بحبال الحياة وهي تجرهُ إلى أرضها حيث النِزاعات والصِراعات والإقتِتال لكن هذا لا يفقههُ الآن فحبال الحياة تَكَتُّفُ إدراكهُ وتلجم شعورهُ فتقذفهُ إلى جوف الأقدار التي سترسم قدرهُ على جبينهُ بشمَّهِ أول نسمةُ هواء تلفَح وجههُ. تِئِنُّ فلا يقدر أن يساعدها بشيء سوى إمْدادها بقوة معنوية، ترفس برجليها وتتلوى ثُم تعلو صرخاتها المتقطعة تهرب منها الأَشباح. صراعٌ مَرِيرٌ معهُ فهو يأبى أن يخرج إلا بتعذيب أمهِ التي تُنازع بين يدي الموت بعد أن سلبها طاقتها وهدَ صراخها صوتها فتحول الصراخ الى آهات. دمَعَت عيناهُ وهي تقبض على يدهُ كأنها تقبض على قلبهِ المُتألِّم لحالها. رسم الموت خطوطهُ على وجهها بشحوبهِ وتَمَلّكَها الخوف فهي تُحدق بالموت كمن يُحدق في عيني قاتل. شعر بخطواتِ تقترب وتمتمَ من عندها تُناغي بها صائد الأَرواح. أسندها في حَجْرِهِ وهو يقول لها: لا ترحلي معهُ!. هَزَّتْ رأسها هَامِسة في أذنهِ: مَجْبُورةً على

الرحيـل. أغمـضَ عينيـه بقـوةٍ لا يريـد أن يَرَاهَـا تُصـارِع الـولادة والمـوت معاً. ثُـم حَـدَّث نفسـهُ قائـلاً: كيـف تمـوت القديسـة وتَلِد في نفـس اللحظـة؟!. ظَـلَّ ينظر إلـى ما بيـن فخذيهـا يخرج مـع كُل أَهَّ تخـرج روحهـا بهـا، حتـى عيناهـا بـدأ يقـل وميضهمـا وأصفـرَ وجههـا الـذي لاحَ فـي ثَغْرَهـا اِبتِسـامة الـوداع، فصَرَخَـتْ صَرخَـة مُدَّوِيـة اِتَّحَـدْت مـع صَرخَـة الطفل وهـو يخرج إلـى هذه الدنيـا التي اِظلَمـت فـي عينـي الصيـاد، فبقـى واقفـاً بيـن الطفـل وأمـهِ المُحدِّقة فيهِ، لم تلمسـهُ أو تَـرَاهُ أو تَشُـمّه فللقدر سـواعدٌ صَمَّـاء لا ترحم تنزع الأَرواح مـن بيـن الأحبّـاءُ بـلا اِرتجـاف. إنـهُ ذكـرٌ لـهُ عينا القديسـة. مُمزَّقة هي فـي أيـدي الأقـدار السـوداء، تَلَطَّـخَ فخذيها حتـى قدميها الدماء وذابِـلَ ثَدْياهـا وشـفَتاها. تقاتـل فيها الحيـاة والمـوت فأنتصر المـوت بنزع روحهـا فضحكت الحيـاة تفاخـر بطفلها واِنهـزَمَ الصياد بعدمـا دَقَّ قلبـهُ مـن صُراخهمـا ليتـرك لـهُ جسـداً سـيحملهُ الغجـر معهُـم ليدفـن بقـرب العجـوز وطفلها سـيرحل بعيـداً مـع أم غجرية. لا أنيـس لـهُ سـوى بُـكاء هـذا اليتيـم كمـا كان هـو لَقِيطـاً يبكـي فـي الطُّرُقَـات والْبُيُـوت. خـرج يحمـل بندقيتـهُ التـي نـادت رصاصتهـا الغجـر، نكسـها وقـال وهـو يُحـدث إلـه القـدر: « خلقتـهُ يتيمـاً كما خلقتني لَقِيطاً، فأقدارنا واحدة وصِفَتنا واحدة هي الصياد».

✵ 3 ✵

حُشِـرَتْ الناس فـي الزُّقَـاق مُلتَحِمة أكتافهُـم مع بعضهـا البعض، يتدافعـون بأعنـاقٍ اشـرأبت وعيـونٍ تتغـذى شـماتةً مـن قتلِهـا كأنهُم دُوْد متجمـع على فطيسـه. هَلَّلَـتْ أَفواههُم فرحـاً بكلمات الـدم التي خَطهـا إصبـع الصيـاد وهـم يـرددون اسْـمُهُ فـي أجـواء الغرفـة وخارجهـا علـى مسـمعٍ مـن رجـال الشـرطة الذيـن شـقوا صفـوف المتجمهريـن كأنهُم سيلٌ جارف شـقَ صـدر الأرض. تسـمع أذانهُم كلمـة واحـده تتـردد فـي رُبـوع الحاضريـن «الصيـاد» حتـى تملَّكَت المحقـق هيسـتيرية وصـرخ فيهـم غاضبـاً: اصمُتُـوا ألا لَعْنَـةُ اللـهِ عليكـم وعليـه. عَـمَّ الهـدوء الـذي يسـبق العاصفـة التـي صرخـت بحناجِر النـاس وهُـم يَسُـبُّونَ المحقـق بقولهـم: ألا لَعْنَةُ اللـهِ عليك. والْتَحَمَـتِ الشـرطة مـع النـاس حتى سَـالتْ الدمـاء وتورّمـت الجِباهُ مـن اللَكَمَـات والـرَكَلات المتبادلـة. فبقـى المحقـق يُحـدق فـي المُشـعْوَذة وهـي تغـرق بدمهـا الـذي صبـغَ نابيهـا بالـدم الأحمـر، مُشَـتَّتا ومُتألِّما مـن هؤلاء الذيـن يتجاسَـرَون ويَخُوضُـونَ معركة ضد رجال الأمن، سـجنوا فـي غرفـة المُشـعْوَذة ولا زالوا يطرقـون الباب ويدفعوها بأيـد قوية كأَلْسِـنتهم التـي جَلـدَت كرامة المحقـق ورجاله بالسِّـبابِ والتَشـهير والتَصفير على خَيَّبْتَهُـمْ في القبض علـى صيادهم. رائحة المـكان نفـذت إلى رأسـهُ الذي أصبـح كطبـلٍ يَدُقُّ بقـوة وهو يـرى العبـارة المكتوبة بالـدم «صاحِـبُ العَظْمَـةَ من قَتَـل الشَّـعْوَذَةُ»،

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ لسُطوع ضوء أَبَديَّة كلماتهِ المرسومة بالدم، هكذا الحقّ يُعْمِي عيني الباطِل والمُتستَّر وراءهُ. تمتمَ بشفتين لا صوت لهما سوى في نفسه والغضبَ يتملكهُ: من يعتبر نفسهُ حتى يُقيم القصاص، هل هو نبيٌ أم سيد قوم أم حاكم مدينة؟!، أم أنهُ إلهٌ في الأرض يطهرها بقوانينهُ الخاصة دون الرجوع إلى أحد!؟. تمكن العجز منهُ وسكنت الرِّيبةُ في ثنايا نفسهُ المتعبة من لَكَمَات المُتجمهرين وكلمات الصياد التي قَيَّدْت يدي إرادتهِ وربطت لِسانَ قلبهِ ومَرغَت كرامتهِ فهو أصبح كالمهرج يُصَفِّقُ ويَسُبُّ ويَضْحَكُ عليه من خلف هذا الباب. مسرحٌ جديد يكون فيه الجاني هو مِطْرَقة الحقّ والقاضي خلف القضبان يصرخ بالغفران لهُ. تسارعت دقَّات قلبهِ وهُم يدفعون الباب ورجالهِ تسند الباب لكن إلى متى يتحملون قوة الناس المدفوعة بالكَرَاهِية ضدهُم؟!. خلعوا الباب ودخلوا عليهُم ركلاً ولَكماً على الوجوه والبطون وفي الصدور كأنهُم مساجين هاربون يضربون سجانيهُم، جاءتهُ لَكمَةٌ ثُم ضربةٌ على رأسهِ بهراوة جعلت الغرفة تدور فيهِ ومن حولهُ رجالهِ يسقطون ويدافعون عنهُ وهو ساقطٌ بجانب المُشعْوَذة والدم يَسِيلَ على جبهتهِ، تنظر لهُ مرعوبةٌ وينظر لها مرعوب، فهي سقطت من ضربة واحدة للصياد ولكنهُ سَقَطَ من ضربات أتباعهِ، تكلم لكن لم يسمع إلا نفسهُ قائلاً: المحقق مات شهيداً وأنا سأموت خائِناً. ففَقَدَ وعيهُ ولا زالت أُذنهُ تسمع السَبّاب والشتم وجسدهُ يُركل بقوة الأقدام.

✵ 4 ✵

يلتهمهُ البيت الموحش المملوء بظِلال الأَشباح الضاحكة لافِضاً إياهُ يمشي في الطريق إلى المدينة الصاخبة، عسى وأن يجد فيها بيتا من بيوت الله يحنو عليهِ ويزيل حزنهُ المستفحِل في قلبهِ الذي يبكي دماً على فراق حبيبتهُ وأبنهُ الذي رماهُ في أَحضان الغجر، فحين دخلت جدة الغجر عليه والقديسة مُسجاة على الأرض يتبعهُا أبناؤها الأشداء، لم يتكلموا بقدر ما تكلمت عيونهُم المُتَوَهِّجة حُزناً بلا دموع، فللحزن قدرةٌ قويه لدى الغجر على شرب الدموع ولفظها بوجهِ الموت. حملها الأبناء بسواعدٍ لا ترتجف وقلوبٍ مكبوتةٍ بالصراخ، خرجوا مسرعين بها هُم ومن معهُم ما عدى جدتهُم تنظر لهُ بعينين تريد أن تسرق الطفل من بين ذراعيهِ. كَاظِمِة غيظها على قدر حبيبتهِ المأساويّ الذي قبض عليهِ بشدة. مدّت ذراعيها ومَدَّ لها يديه تحمل الطفل ولِسانهُ يوصيها: «خُذِي هذا الصياد الصغير وعندما يكبُر أخبريه عن أفعال الصياد الكبير» رمتهُ بنظرة صادقة مليئة بالحزن الذي نطَقَ به فمها المُتيبِّس حُزناً: سأحدثهُ وسأغرز فيه بذرة من شجرة ثورتك. تُرك وحيداً وهُم يرحلون لدفن الأم بجوار العجوز، لم يتبعهُم ولم تسألهُ الجدة الغجرية وهي تحمل طفلهُ لكنها سمعتهُ يقول لها: «لن أمشي في جنازتكِ لأن لقاءنا قريب في عالم سرمدي لا يخفت الضياء فيه». لا شيء يواسيهِ بعد أن شَهِدَ الحياة

والمـوت في بيتـه لكن الأمـل يَلُـوح هُنـاك مسـرعاً بقدميـة المتعبتين وهما تسـوقانهِ إلى بيـوت الله. فواجـه الجامـع مليئاً بالأمـل أن ينتزع منهُ الحزن فسـمع تراتيـل كلمات اللـه وهي تبعـث الهدوء والسَّـكِينَةَ من خلـف أحْزانهِ التـي يتعالى صـراخ الألَم فيهـا، فيَخْبُـو ويعلو حتى ارتقى المنبر شـيخٌ كهـل والناس تتجمـع بضوضائها المعهـود بعد أن أنتهـى الأذان ومن بعـدهِ الصلاة تحـت المنبر. سـمع كلماتهِ فـإذا بها تـزرع خوفـا فـوق ألَـم فاِمْتَعَـضَ كمـا امْتَعَـضَ الجالسـون لكنهُـم لا يجـرؤن على سـؤالهِ أو مناقشـتهِ فهو الصـوت الأوحَد الذي يشـوهُ ملامح بيـت الله. خـرج دون أن يشـعر بـهِ أحد لجلوسـهُ فـي الصف الأخيـر قـرب البـاب. اِسْتَنْشَـقَ الهـواءَ بقـوة ليَنْفِـثُ أنفـاسَ غضبـهِ، خطى بعيـداً والصـوت يلاحقـهُ مـن المِئْذَنَـة. وقـف على عتبـة معبدٍ يهـودي وضـوء الشـمعدان لاحَ لـهُ مـن البـاب مـع صـوت الحاخام يتحـدث مـع الجـدران والشـبابيك، فلا أحـد فيها سـوى بضـع أُناس جالسـين واجِمين تحـت غيمـة مـن البخـور تمطـر سـموماً علـى رؤوسـهم. سـمع يهوديـا يخـرج مـن المعبـد وهـو يُحَـدِّثُ نفسـهُ: «مللنـا من تكـرار هـذه الأحاديـث التـي تـزرع الحِقـد والضَّغينـةِ فينا لذلك لـن آتي إلـى هُنا حتى يصمـت»، حَـدَّجَ الحاخـام بنظرة غضب تنبعـث منهـا رائحـة الدم فـي نفسـهِ. يخطـو ففـي كُل خطـوة هاجسٍ وفكـرة لتطهير بيـوت الله تبعـدهُ عن أحزانـهِ وترميـهِ في لُجَّـةُ قضيتهِ. وقفت قدمـاهُ وهَلَّلَـتْ الأجواء المسـيحية بقرع أَجراسـها فوق رأسـهِ المزدحـم بالرعـود والبـروق، مـال علـى الأَدراج وهـو يخطـو عليها

وصـولاً إلى بوابـة الكنيسـة المُزَخرَفـة بألوان الحيـاة، جذبهُ المسـيح المصلوب فـي نهايـة الكنيسـة، فوقـف يتأمل مـن بعيد الفـادي الذي فـدى البَشَـريَّة والتحق بالإلـه تاركاً القساوسـة وهـذا أحدهُـم يحثهُم علـى المثاليـة فـي الحيـاة والاعتـراف بالأخطـاء فـي غرفـة اعترافـهِ لكنـهُ لا يعتـرف للمسـيح نفسـهُ أنـهُ سَـقَطَ الأَديـان الأُخـرى تحـت خشـبة الصلَـبَ حتـى نسـوا الإنسـان هـو والشـيخ والحاخـام. فأيـن يذهب الإنسـان مـن صـراع الأَديـان هـذا؟. منهُم مـن تـرك الكنائس إلا القليلين كمـا يراهُـم الآن يترددون عليهـا وهكذا للأَديـان الأُخرى، حتـى النـاس التـي تأتـي إلـى بيـوت اللـه بكثـرة فـلا يتكلمـون أو يُناقشـون بـل يصمتـون خائفيـن. تراجـع ثـلاث خطـوات للـوراء وخرج ورفع رأسهُ إلى السماء:

«سـأخرس صـوت الزُعَمـاء فـي الإنسـان وأطلـق فيهُـم صـوت حُب كُل الأديان»

حثَّ الخطـى خارجـاً مـن المدينة إلـى نفس الربـوة التـي يريد أن يَسـكُن عليهـا مع صـوت العجـوز وهـو يحدثـهُ عـن هـؤلاء الزُعَماء الذيـن يجـب أن يصمتـوا بـأي طريقـة كانـت وأفضلهـا كمـا نصحـهُ العجـوز بقطـع رؤوسـهم، لكن كيـف؟!، هـذا ما سـوف يعرفـهُ وهو يتحـدث مـع شـياطينه التـي يسـتحضرها لقتلهُـم. فـكُل واحد منـا لهُ شـياطينهُ يناديهـا وتناديه لكـن الصياد سـجنها فـي قلب نفسـهِ واليوم سـوف يطلقهـا تحـت جُنْـح اللَّيْـل ليسـتلهم منهـا قطـع رؤوسـهم وتعليقها فـي ميـدان المدينة العـام ليكونـوا عِبْرَة لمـن اِعْتَبَـرَ. فبذلك

سيصمتون طويلاً إذا اتَّفقت عبارة الدم مع قطع الرؤوس وإذا لم تتفق فستنزل عليهُم كالصاعقة فلن يصمتوا طويلاً كما قال لمعلمهِ. يشعر بهُم ولا يسمعهُم ثُم يُحدِق في الظلام فلا يراهُم لكن وَحي الأفكار قد اِستلهمهُ حين وصولهِ الربوة. صعِد وفي كُل خطوة يكون إلهَام الشياطين مع روح العَدَالة التي تسيرهُ تُنمي فيهِ حبكة قطع رؤوسهُم في داخله كشجرة سُقِيَتْ دماً فطرحت ثماراً حلوة. وفي قمة الربوة نَمَّتِ وكبرت الشجرة حتى اِستَظَلَّ تحتها وتحسس حلاوة ثمرها المعلق الذي سوف يقطف غداً بأول ضوء من الفجر ينبجس فينير جبين المدينة النائمة. قبل صِيَاح الدِّيكِ ستصيح الحناجر رعباً وفرحاً في ثنايا الْبُيُوتَ وعلى الطُّرُقَاتِ وفي جوف الأَزِقَّةِ البكماء.

الزُعَمـــــاءُ

✵ 1 ✵

يـداه تقطـرُ دمـاً وسـاقاه تركضـان بـهِ فـي الخَـلاَء الـذي احمـرت سـماؤه بخيـوط الفجر المتسـللة من خلـف الجبال، أنفاسـهُ لاهثـة تريد أن تسـكن وتَلُـوذُ بأحـد الأَعمِـدَة الحجريـة المنتصبـة وهـي واقفـة فـي العراء تَحْدِجُـهُ عيونها الجاحظة المسـتغربة برؤوسـها المثلمـة من وَطْأة قدميهِ فـي أرضهـا كأن تماثيلهـا تَنطِـق بأصـوات ملوكها وهي تقـول: ما الذي أتى بـكَ إلى هُنـا؟!. جلـس وهو يُسـنِد ظهـرهُ تحت قدمـي تمثالٍ قديـم لـم يبـق منـهُ سـوى عيـن فـي وجهـهِ ويـد واحـدة وتسـاقطت الحجـارة مـن جانبيـه حتـى بـآنَ كنصـف إنسـانٍ متألِّـم. تيبَّسَ الـدم في يديـه فانتفَضَ يمرغهمـا في التراب ويسـلخ الـدم المُتيبِّس، عبَّـقَ التراب اختلط بـدم الزُعَماء حتـى انتشـت أرض الحضـارة المُنْدَثِـرة بطعم الدم الـذي فارقهـا مُنذ قديـم الزمـان. تَكاثَـفَ الضوء شـيئاً فشـيئاً حتـى رأى نفسهَ في أرض إِحْدَى الحضارات المُنْدَثِرة وهو يقول:

– مـا اطيـب عبَّـقَ التاريـخ ومـا أَقْبَـحَ الحاضر وهـو يتمـرغ بدماء الإنسـان المقتـول. أزلـت دماءهـم بقـوة تـراب هـذه الأرض التـي شـربت ما شـربت مـن دمـاء الأَجسـاد أمـا أرضنـا الآن فهي تشـرب روح الإنسـان وتتركـهُ كالبهيمة يَسـرَح بقوة عِلمهـا. وهـذا تَحَقَّقَ بعد أن تنبأ بهِ معلمي.

ففـي إِحْـدَى الصباحـات المُبتَهجـة رافقـهُ بنفـس هـذا المـكان وصدى صوتهُ يَتَرَدَّدُ في نفسه الآن:

– اِنْدَثَـرَتْ الحضـارات فبقى الإنسـان يحملهـا ويتفاخر بهـا أمام أخيـه، اسـتعبدَت الحضـارات القديمـة وقتلـت مـا قتلـت وعلـى الجانـب الآخـر ارتَقَـت فدعمـت الفنـون والعلـوم لكـن لـم تدعهـا تبتلع الإنسـان، بقـت رفيقهُ الـذي يأنـس بها وتأنـس به، يشـرب منها الجمـال وتبثـق فيـه الوعـي حتـى لـو كان علـى عينيه غَشـاوة شـفافة يرى منها. ميـزان الحضـارات كان يتأرجـح بيـن الحُرِّيَة و الاسْـتِعْبادِ وقِبانـهُ الإنسـان ينتفـض فيسـقط العُبودِيَّـةُ، حتـى تعلـو كفَـة الحريّـة ومنارتهـا الفـن والعِلـم ثُـم بعدهـا تَـزَأَّرَ الحـرب التـي تسـتعبد الفن لتخليـد الأَمجَـاد والعِلـم لقهـر الأعـداء، فـكان صراعـا ذا حـلاوةٍ ارتقى بالبشـر. انظـر الآن إلـى هذه الآثـار المُهَدَّمَـةٌ فهي تشـبهُ جوهر إنسـان الحاضـر. يزورها ويضحـك فـي حضرتهـا ويتفاخر بأجـدادهِ لكنـهُ لا ينظـر إلى جوهـر ذواتـهِ المُحطمة والمسـحوقة تحت أسـنان العِلـم الفولاذيـة وهـي تبتلعـهُ فـي جوفهـا المظلـم. فـأي حضـارة لا يفهـم بهـا الإنسـان الفنـون إلا مـا نَـدَر وحتـى الـذي يفهمـهُ لا يلمسـهُ، بـل جعلـهُ العلـم يفهُـم مـا يريـد أن يفهـم. الحضـارة أن يرتقـى بابـن آدم لا أن يُجَـرَّدُ مـن إنسـانيتهِ فيصبـح آلة جنس تتناسـل كالأرانـب، تنـام وتصحـو علـى اللعـب والأكل. هُجـرت الروحانيـة وتسـلطت الماديـة فـوق رؤوس ذوات الإنسـان فأصبحنـا شـرِهين وجوعـى بنفـس الوقـت، نسـتمتع بمـا نلتهـم مـن المـادة العلميـة ولا نشـعر بجـوع النفـس وهـي تلفـظ أنفاسـها الأخيـرة. وفـي المسـتقبل القريـب وليـس البعيـد سـنكون تحـت سُّـلْطَة العِلـم التي

ستحرق الكلمة والرسم والموسيقى بأنفاسها اللاهبة فتجمل ابن آدم بأحلى صورة وهي ترسمهُ كما هو يشتهي أن يكون، فما أَقبح دواخلنا في زمن الحضارة الآن!.

نهض من مكانهِ ويداه تلمعان وقلبهُ حزينٌ على بني آدم ودقات قلبهِ تصاعدت بمُناداة ذاكرتهُ لهُ بما فعلهُ بالزُعَماء لكن ضميرهُ هدأَ قلبهُ بكلماتٍ:

- أرض الحضارة الإنسانِيَّة والحضارة القديمة التي تقف اليوم عليها فَرِحةٌ بقطع رؤوسهُم فهُم آفَة الزمان التي تُبعد الإنسان عن الله وتبعد الله عن الإنسان. فهو نصرٌ لحضارة العِلم بقتلهُم لكنهمُ لا يدرون أنها نصرٌ للإنسانِيَّة أيضاً التي ستَلْتَفِتُ إلى غُول العِلم هذا فتحطم أسنانهُ وتردم فمهِ بحجارة الحضارات القديمة مَادَامَ أمثالَك يتجولون في أرض بني آدم.

✵ 2 ✵

ثلاثـة رؤوسٍ معلقـة علـى رؤوس ثلاثـة رِمـاح، تتضـارب القلوب مدويـةً في صـدور النـاس المحيطيـن بهـا والفَزَع مرسـومٍ على سـيماهِ وجوههـم. كمَّـمَ الخـوف أَفواههُـم و هلَّـل لِسـان الضميرِ فيهُـم فرحاً لكـن المواليـن لهُـم اِنفَجَـروا غاضبيـن يَشْـتِمُونَ ويَسُـبُّونَ مـن قطـعَ رؤوسـهم فاِسْـتَفَزَّت أصواتهُـم المتعصبـة أصـوات المسـتعبدين وتَلاحَمَـتِ كلماتهُم تتقاتل فـي الفـراغ المُلْتَهِب المفـزوع والحائِر من معركـةٍ وشـيكه ستَسِـيلُ بسـببها كثيـرٌ مـن الدمـاء. يخافـون لَعْنَـةُ اللـه عليهُـم مـن قطـع رؤوس زُعَمائهـم فـي الوقـت الـذي يصـرخ صوت الحريّـة في الطـرف الآخر مـن المعركـة الكلاميـة يتصاعد فيها سِـباب الصيـاد من جهة ومـن الجهة الأُخـرى يلطموهـم بقوة الكلمـات دفاعاً عنـهُ. للخالـق أقـدارٌ يسـيرها فـي الوقـت والمـكان والزمن المناسـب ليمـلأ الفـراغ الصـارِخ، ولكـن أي قـدر؟، أهُم شـرطة المدينـة؟ لا... فشـرطة المدينـة وقفـت بينهُـم وعلـى رأسـهُم المحقـق فلـم يسـمع صوتـهُ أحـد حتـى ذابَ وتلاشـى صوتـهُ بيـن الأصـوات المُتلاطِمـة وكأنها أَمـواجٌ عاتيـة ترتطـم بصخور السـاحل فلا يسـمع بعدهـا هَدِير النوارس المرتعبة إلا همسـاً. انسـل الشـيخُ المُعْتَـزِل الكبير يَنُوء رأسـهُ بعِمامَتُـه البيضـاء واقفـاً فـي قلـب الفـراغ وهـو يَصِيـحُ بالجانبيـن: « اصمُتُـوا يـا أبنـاء المدينـة». صمتـوا وهُـم يلهثـون مـن صـراع الجَدَل فعَـمَ الهـدوء بيـن الطرفيـن المتنازعيـن. يَتَلَفَّـتُ قـارئً وجوههُـم، مُقَطِّب الوَجْهِ غضباً لتخرج الكلمات تَفُور من فمِهِ:

– يـوم قتـل الصياد مـا قتـل لـم تتنازعـوا فيمـا بينكُـم بـل فرحتم ولكن يـوم قتـل زُعَماءكُـم تنازعتـم ولـو تركتـم لتقاتلتم. مـن مِنا من لا يعـرف هؤلاء؟، كُلنـا نعرفهُـم إن أَسَـاءُوا أو أصلحوا لكن أَسْـوَأَ ما فيهُم أنهُم كانوا يستعبدونكُم ويشحذون الْفِتَنِ فيما بينكُم.

قاطعهُ أحد الموالين بصوته الجَهْوَرِيِّ:

– الصياد زرع الفِتْنَةُ وليسوا هُم.

اِلْتَفَتَ إليه ينهرهُ بقوة كلماتهِ:

– لا تمتلـك الشـجاعة لتنقِـد زعيمـك لكن تملكهـا لنقـد الصياد الذي حررك منهُ، ولو أراد فِتنه لقتل زعيم مسجدك فقط.

عَـمَ الهـدوء وإذا أحـد الحاخامـات المَنفـيّ مع قـس مَنبـوذ الكلُ يعرفهُـم ينضمـون للشـيخ الكهـل. جَـلاَل وهَيبـة الثلاثـة اِبتَلَـعَ غضبهُم. تقدم القس المَنبوذ وهو يشير إلى عبارة الدم ويقول:

– لم تقـرؤوا حتى ما كتـبَ لكُـم وتتهموهُ بإثـارة الفتـن فهو نصير الإنسـان عندمـا يكتـبُ لكُـم بالـدم: «تحـرَّرَ الإنسـان بقطـع رؤوس زُعَماء الأَديان»، ألا يعني هذا لكُم شيئاً؟!.

فـرح الشَّـامِتِونَ بالزُعَمـاء المقتوليـن ففـار غضـب الموالِيـن، فدخل الحاخام المَنفيّ بكلماتهِ التي أصمتتهُم:

– لا تشـتموا الزُعَمـاء ولا تذرِفـوا الدمـوع عليهُـم بـل اِعتَبروا من عِبرة الـذي يلوث الإنسـان ويرميه فـي وحِـل الكراهية. كُلنـا أصواتنا

مَكتومة كانت لأننا جُبناء إلى أن فتح لنا الصياد باب الثورة حيث الحُرِّيَة تنتظرنا لنطلق سراحها في بيتنا.

أرادَ المحقق أن يتكلم لكن الشيخ أَسكتهُ ليقول:

- إن بيوت الله بُنيت لتدعيم روح الإنسانِيَّة فينا لا أن يربوا فيها عبيداً لا تُناقش ولا تسأل ولا حتى تهمس فيما بينها وبين الآخر. زرعوا الخوف فيكم وفينا زُرع من قبل، أنهُم خلفاء الله في الأرض بل كُل إنسان هو مُستخلَف في الأرض. أسمعكم الآن وأنتم تقولون: «انْظُرُوا إلى هذا الكذاب الذي يدعي محبة الأَديان الأُخرى» وأقول لكُم نعم نحنُ الثلاثة فيما بيننا الكراهية والحِقد وحتى تمني القتل لكن أَلْسْنَا أبناء هذه الأرض وفوق رؤوسنا الله الذي ندعي أَننا نحبهُ ونعبدهُ لأنه لو كنا كذلك لاحترمنا أنبياءنا موسى وعيسى ومحمد. لا اطلُب منكُم أن تحبوا إخوانكُم وتتصافحوا وتقبلوا بعضكم مُجامَلة بل تفكروا في الإنسان الذي دَعَانَا لهُ الصياد فهو الضحية الوحيدة بين يدي هؤلاء مقطوعي الرؤوس ولا تسقطوا الأَديان بل أسقطوا صَنَم الدين الذي يتعالى عليكُم ويَمُصُّ دمكُم ويرميكمُ جثثا بلا أرواح مُتَمَرِّدة.

صمت المسلمون في حِيرة مما قالهُ الشيخ وأَضافَ الحاخام المَنفيّ:

- كُل الذي قالهُ الشيخ أنا معهُ لكن دعنا من شعب الله المختار وكيف لُعنا وتشردنا؟، إلى أن استعبدتكُم المعابد، تحرروا من المعابد المستعبِدة وناصروا المعابد التي تُحرركُم

والكراهية شجرةٌ كبيرة فينا ويجب أن نشذبها بمرور الأَيام إلى أن نقتلعها بسواعد الإنسان. هُناك فرق في الأَديان لكن لا فرق بين إنسانٌ وآخر إلا بمدى عمق توغل الإنسانِيَّة فيهِ.

اِمتَعَضَت اليهود لكن قلوبهُم دَقَّتْ موالاة معهُ. فتقدم القس المَنبوذ وهو يرفع الصَّلِيبُ قائلاً:

- سنوات وأنتم راكعون تحت خشبة الصَلب، أيرضى المسيح أن تكونوا عبيداً تُؤمرون فتطيعون كُل ما يقولهُ لكُم زعيمكُم!، لا يرضى فهو الْفَادِي الذي افْتَدَى نفسهُ لأجلنا، فكرمهُ ربهُ رافعاً إياهُ حياً. أَمْوال ومصالح وشركات هي معابد الله اليوم فلا يستثمرون سوى الإنسان فيها، فهو رأس مالهُم الذي يُدر عليهم الأَموال ويبقيهُم في السُّلْطَةُ مُذْنِبِينَ الزُعَماء فلا يستغفرون بل تستغفرون لهُم لا إلى الله.

وقع الكلمات قد أَخذ إثرهُ في نفوسهُم وهُم ينظرون لا زالوا بعيون العبيد هاتِفَينِ من هُنا وهُناك: فلتكونوا أنتم الزُعَماء. وواحد آخر قال: أنتم أَهلاً لها فلتكونوا مكان هؤلاء.

قال المُعْتَزِل:

- لا زعيم إلا الله ولا منبر أعلى من إنسان الله فأنا واحدُ منكُم لا زعيما عليكُم.

تبعهُ المَنفيّ قائلاً: سيعلو صوتكُم فوق صوتي في المعبد لأنكُم ملَلتم صوت الزعيم.

واتكأ المَنبوذ على عصاهُ ولسانهِ المُثقل بالتواضع يقول:

- لـم يكُـن المسـيح زعيمـاً ولن أكـون كذلـك بـل أكـون المُعلم الـذي يسـمعُ أكثـر ممـا يتكلـم ولا أغفـر لأحـد فالله الـذي يغفـر ذنوبكُم وذنوبي.

لاحـتْ شـمس الظّهِيـرَة مـن وراء الغيوم وهـي تلقـي بنورها على هامـات المُتجمهِريـن والرضـا بـدأ يظهـر فـي وجوههُـم والغضـب اختبأ فبقى ظلهُ في نفوسهُم. تهامسوا حتى دخل المحقق:

- تفرقـوا إلـى أَعمالكُـم لأننـا نُريـد أن نزيـل الـرؤوس ونأخـذ الأَجساد من بيوت الله.

نظـروا إليهـم وهـم يرقبـون الثلاثـة حتـى هَـزُّوا رؤوسـهُم للمُتجمهِرين بأن تفرقوا ولكن صرَخَ أحدهُم:

- خُذوا الرؤوس والأجساد ودعونا نُنظف بيوت الله.

لم يتحـدث منهُم أحـد وتفرق النـاس وهُم فـي أجواء فكـرٍ جديد ينبثـق كالمولـود الصغيـر يجـب أن يعتنى بـهِ حتـى يكبُر فـي قلوبهُم. ودع الثلاثـة أحدهُـم الآخـر بالتحيـة وشـمس الظّهِيـرَة تسـطع علـى المدينـة وتُطهرهـا من رائحـة الفتـن العفنـة وتطـرُدُ مصاصـي الدماء إلـى جحورهُـم ولكـن لازال الشـر يتربـص بالمولـود الجديـد الذي سـيكبرُ تحت الطعنـات والإقتِتـال والصراعـات، كُل واحـد يجب أن يُقاتـل مـن أجـل فِكـره حتـى تتعالـى فيـهِ الإنسـانِيَّة رغـم صَرَخـات الشر في ثَنايا نفسهِ.

✵ 3 ✵

خـرج الثائِـرون مـن الظُّلُمَـاتِ إلى النُّـورِ على قـرع طبـول الثورة بقطـع رؤوس الفِتن والفسـاد والاِتِّجَـارِ بالبشـر. فها هـي بذرتي التي بذرتهـا فـي نفـوس أَهـل المدينـة، سـتكبُر وتنمـو رغـم هَـول الأَيام القادمـة إلى شـجرةٍ تتفـرع إلـى غصـونٍ خضـراء. كُل مَنبـوذٍ أو مَنفيّ أو مُعْتَـزِل سـيلحق برَّكْـبُ الجماهيـر وكأنهُـم سـيلٌ جـارف ولا بُـد لهـذا السـيل أن يرتطـم بالصخـور فتفرقـهُ ثُـم تجمعـهُ تحـت عبـاءة الإرادة المُتحـرِّرة. ليسـت هـذهِ إلا بُقعـة ضـوءٍ فـي قلـب ليـلٍ بَهِيـم تتوسـع إذا مـدوا الخَطَّى بلا خـوفٍ في أَدغـال الغابة المتوحشـة التي آن لهـا أن تُشـذب فـي الإنسـان، فمَـدّ الخطـى يجـب أن يكـون بـلا تـردُّد، فالتـردُّد هو السـيف البَتَّار الـذي يقطـع رأس الثِقَة. جَسُـورٌ من يسـحق بقدمهِ أَدغال نفسـهِ وشـجاعٌ من يُجَابِهُ الزَواحِـف والقَوارِض فليسـت النفس إلا حديقـةٌ جميلـة عندمـا تُترك سـتنال منهـا الأَدغال فتقتـل الورد ويطل الشـوك برأسـهِ يَزْجُـرُ الأَقـدام على رَفسَـها. تنفث الأفَاعـي بوجـه الجبـان فيفرُّ من نفسـهِ إلـى الصـراخ عليها مـن بعيد. يزحـف الجنـون إليهـا وتعشـعش الطيـور الجَارِحـة علـى هامـات أَشـجارها. اِنتـزع الخوف وارمـهِ لها أو ليسـت الحياة مغامـرة؟، ومن لا يُغامـر لـم يَعِـشْ الحياة بـل يتعفن فـي بطنهـا وهـو ينظر مَخـذُولاً مقموعـاً تحـت سَـوْط الخـوف الـذي يسـلخ جلـد إرادتـهِ. اليـوم تبصـرت فرأيـت تلـك البُقعـةُ تشـعُ أملاً فـي نفوسـهُم وهـي تزحف

على غابات النفس المُوحِشة وصراخ الحشرات وأَزِيزها يعلو خوفاً بعدما كان يعلو فرحاً بخوف الإنسان. لا تناموا مُطمئِنين فالطُّمأنينة هي ضربٌ من المرض يُصيب أبن آدم فيسقُط في فَخّ خيانة النفس بل كُن قلقاً مُراقباً للنفس وابن أَسوارا حولها حتى لا يتَسَلَّلَ لصوص الأَدغال اليها فيعيثون فساداً فيها. هكذا كانوا يخونون نفوسهُم لكنهُم لا يعلمون أن أعظم الكبائر أن تَخُون نفسك، وأَقدام هؤلاء اللُّصُوصَ قد دنست أرضها وسبت ذواتها واِغتصبت روحها. ضُربوا اليوم على رؤوسهُم بفكرةٍ جديدة أقلقتهُم ولكن هُناك من يُريد أن يصطادها وهي ولِيدَة حتى لا تكبُر وتحول الطُّمأنينة إلى قَلَق والقَلَق إلى تَمَرُّد والتَمَرُّد إلى ثورةٌ مُشتعلة لا تهدأ ولا تنطفئ في قلوبهُم. يا لهُ من شر في الإنسان تتكاثرُ فيهِ أمراض الشر وتحرقهُ كالنار في الهَشِيم ولكن الخير فيهِ طارئ سُرعان ما يَخْبُو ضياؤه ويتعالى بُكاؤه. تستطيع أن تَهدِم بيتاً في ساعة لكن لا تستطيع أن تبنيه في ساعة هكذا هي النفس عندما تُهدم ولكن إن أردت بناءها عانيت ومرضت وبكيت من الألَم في أَحْضان الساعات والأَيام والسنين، فإما تُرمَّم وإما تظل أَطلالا. هكذا حَدَّث نفسهُ وهو في الفراش وحيد لكنهُ سعيد ببُقعة الضوء التي ستكون الأمل الإنساني في قلب أبناء المدينة، لينهض واقفاً شاعراً بملل الِانتظار من قدرٍ لطالما تمنى زيارتهِ مُنذُ زمنٍ ليس بالطويل.

✵ 4 ✵

تلفُ رؤوس سلطة المدينة الكبار الحِيرَة والصمت بعد فاجعة الزعماء، فلا كلام، فقط الأنفاس تزفر قهراً على هيبتهُم التي مُرغت بالوحل، طَرد الصمت وقتلَ الحِيرَة طرق باب مكتب المُحقق بعنف وفزع المُحافظ وحرسه مع مساعد المُحقق الجديد الذي ترك الأوراق من يده، صارخاً:

- أدخل.

دخل أحد المُخبرين يلهث وهو يقول على عُجالة:

- لقد وجدتهُ إنهُ هُناك ما وراء الجبال والغابة يتخذ من كوخٍ قديم مسكنا لهُ.

- وكيف عرفت ذلك؟!.

هكذا سألهُ المُحقق ليرد عليه:

- بعد أن فزع الكُل إلى واقعة قطع رؤوس الزعماء حتى المُخبرون زملائي المنتشرون في المدينة وعلى بواباتها الخارجية لم أتحرك أنا من مكاني فأخذتُ غفوةً من جراء سهر الليل وما أن فتحت عيني بعد ساعة تقريباً حتى لمحتُ من بعيد رجلا طويلا وضخما خارجا من جهة الآثار تاركاً المدينة وراء ظهره، تبعتهُ بعد أن راودني الشك فيهِ. بقيت أتبعهُ ففي كُل خطوة يبتعد فيها عن المدينة أزداد يقيناً أنهُ الصياد، حتى لمحتهُ من بعيد يدخُل الكوخ،

فأسرعت إلى هُنا قبل أن يُدركني الليل وأنا في تلك البقعة الموحشة خوفاً من الطريق الوعر ولكي أبلغكُم بما رأيتهُ فوراً.

انتفض المُحافظ قائلاً:

– هذه فرصتنا الذهبية لكي ننقض علية تحت سواد الليل لكي نُنهي هذه المهزلة.

ردَ المُحقق وهو ينظر إلى المُخبر:

– وما أدراك أنهُ هو؟.

انتظر المحقق جواباً يرضي ما في نفسهُ من تمني أن لا يكونَ الصياد لكن جاء الرد على غير غرار ما كان يتمناهُ:

– من المُستحيل أن يعيش هُناك رجلٌ سوي فتلك الأماكن لا تسكُنها سوى الجن والشياطين فلا إنسي هُناك سواه غير عجوز المدينة فيما مضى.

– إذن هو رفيق عجوز المدينة. (هكذا تكلم المحافظ بصوت عال) ليُكمل:

– عرفت الآن من أين أتى بعبارات الدم الرنانة.

أتخذوا القرار بالهجوم عليهِ في نفس الليلة، جمعوا كُل عناصر الشرطة ودرسوا المنطقة بالخرائط التي فرشوها على المنضدة، فوجدوا منطقة وعرة يجب أن يترجلوا على مسافة لا تزيد عن ثلاثة كيلومترات كي يصلوا إليهِ، وهو المطلوب كي لا يسمع ويشعر بهَدِير السيارات. انطلقوا بعدها بقلوبٍ مُتعطشة لقتلهِ إلا المُحقق تملأ قلبهُ الحسرات.

✵ 5 ✵

حين خلعوا الباب بقوة ودخلوا عليهِ والبنادق والمُسدسات ترتجف بأيديهُم وجدوهُ جالسا على كُرسي خشبي وراء طاولةٍ خشبية صُفت عليها كُتب ومن وراءهُ مكتبة العجوز تصرخُ أفواه كُتاب كُتبها بغضبٍ من وراء أغلفتها الجلدية على انتهاك حرمة كوخ العجوز، انتشروا وتقدم المُحافظ بنفسهِ ومن وراءه المُحقق ومُساعدهِ ومُسدسهِ مصوب نحو رأسهِ حتى قال لهُم:

– ما الذي أخركُم يا حُماة القانون؟.

– أكُنت تتوقع مجيئنا؟!. (هكذا سألهُ المُحافظ ذو الكرش المُتهدل على خصيتيه).

– تركتُ مُخبركُم يمشي خلفي من بعيد لكي تجدوني.

تقدم المُحقق يصرُخ عليهِ بغضبٍ مُقنع:

– أتُريد أن تُبرهن على عجزنا في إيجادكَ.

– اخلع قناعكِ كي تعيش بسلام كالمُحقق الذي سبقك لكن شتان بين الشُجاع والجبان.

– اخرسا كلاكُما (المحافظ صارخاً).

نهض الصياد والمُحافظ يُكمل كلامهُ بشماتة:

– كُنت أريد أن أشنقك في قلب المدينة لكن الليلة سينتهي كُل شيء فلا مُحاكمة ولا جماهير تُصفق وتُصفر للبطل بل هي طلقةٌ

واحـدةٌ تُخرس أسـطورتك إلـى الأبـد كما أخـرس المـوت عجوزك المجنون.

أراد المُحقق أن يتدخل لكن صوت المُحافظ زجرهُ بقوة:

- لا تتدخل أنتَ فإنهُ لي ولا أحد سيقتلهُ غيري.

- العجـوز حـي فـي ضمائـر النـاس وطلقتُـك هـي مـن سـتُخلد أسطورتي لا مشنقةٌ في قلب المدينة تقتلُ ثورتي.

ارتعـب المُحافـظ فعينـاهُ كعينـى صقـرٍ بثـت الخـوف فـي قلبـه، ليقول لهُ الصياد:

- اضغـط علـى الزِناد فلـم يبق عندي شـيء أقدمـهُ لأهـل المدينة بعد أن منحتهُم كُل شيء.

طلقـةٌ خرجـت مـن ضغطـةِ إصبـعٍ يرتجف علـى الزِنـاد أجلسـتهُ علـى الكُرسـي بعـد أن تناثـرَ دم رأسـهِ علـى عناويـن الكُتب فسـقاها بدم الثـوري كـي تحيا طويـلاً في قلـبِ مـن يقرأهـا ويحمـل البندقية من بعـدهِ، نُكسـت البنادق وحُشـرت المُسدسـات في جيوبهـا وقلب المُحقـق يخفـق حُزنـاً عليـه وعلـى نفسـهِ التـي لـم تخلـع قناعهـا. تركـوهُ فـي الكـوخ مقتـولاً لتحيـا ثورتـهِ طويـلاً مـا دامـت الشـمسُ تشرقُ وتغيب على وجه المدينة.

انتهـــت

الفهـــرس

الإهـداء 3

السفَّـاحُ 5

الكَـاذِبُ 17

القَوَّادُ 31

الْقَاضِـيُ 49

الجَنِرال 59

السِّياسـيّ 71

الْمُرَابِـي 83

الشَّاعِر 105

المُشْعْوَذة 125

الزُعَماءُ 139

السَّعيد
للنشر والتوزيع